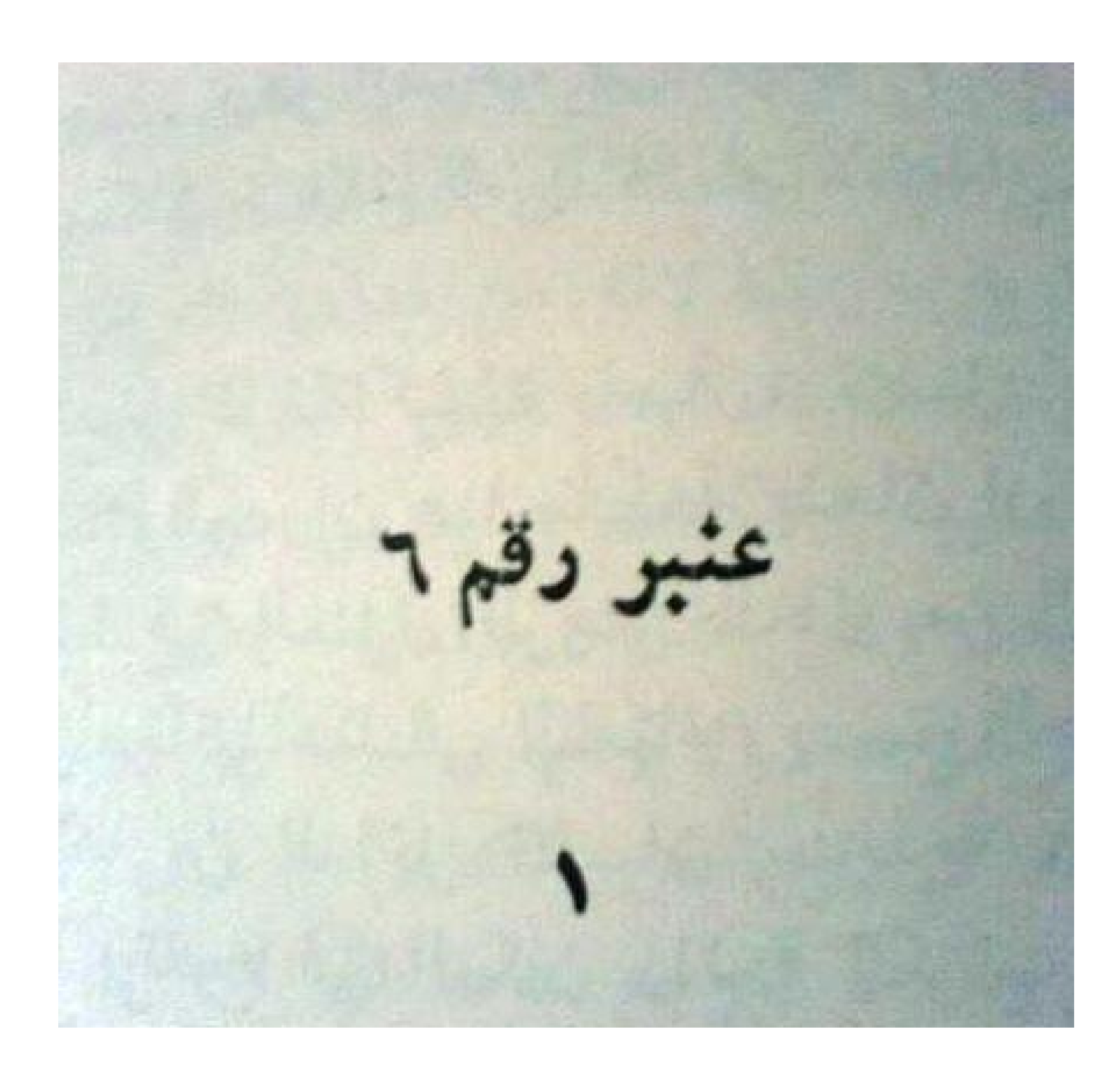
عنبر رقم ٦

انطون تشيخوف

ترجمة

د. ابو بكر يوسف



عنبر رقم ٦

١

١

يقوم فى فناء المستشفى جناح صغير ، محاط بغابة من الارقطيون وشائك القريص والقنب البرى . وسقفه صدىء ، ومدخنته تهدمت الى نصفها ، وتآكلت درجات المدخل الخشبية وغطاها العشب ، ولم يبق من الطلاء غير آثار . وتطل واجهته الامامية على المستشفى ، اما الخلفية فتطل على حقل يفصلها عنه سور المستشفى الرمادى ذو المسامير . وهذه المسامير باسنانها الى اعلى ، والسور ، والجناح نفسه تبدو بتلك الصورة الخاصة الموحشة اللعينة التى لا نجدها عندنا الا فى مبانى المستشفيات والسجون .

واذا كنت لا تخشى ان يلسعك القريص فلنمض عبر درب ضيق يفضى الى الجناح ، ولنلق نظرة على ما يدور بداخله . بعد ان نفتح اول باب ندلف الى المدخل . هنا تتكدس بجوار الجدران والفرن جبال من نفايات المستشفى . . مراتب وارواب قديمة ممزقة ، وسراويل وقمصان ذات خطوط زرقاء ، واحذية بالية لا جدوى منها . وقد كومت كل هذه الحثالة اكواما ، مجعدة ، مختلطة ، وتتحلل تنبعث منها رائحة خانقة .

وعلى هذه النفاية يتمدد دائما الحارس نيكيتا والغليون بين اسنانه . وهو جندى متقاعد عجوز ذو اشرطة كالحة ، ووجه قاس غائر الخدين وحواجب كثة تضفى على وجهه تعبيرا تجعله اشبه بكلب المراعى ، وانف احمر . وهو قصير القامة ، جسده ضامر معروق ، لكن هيئته مهيبة وقبضتيه ضخمتان . وهو ينتمى الى ذلك الطراز من الناس البسطاء ، الايجابيين المطيعين والبلداء ، الذين يحبون النظام اكثر من اى شىء فى العالم ولذلك فهم على يقين

بانه ينبغى ضربهم . وهو يضرب فى الوجه ، وفى الصـــدر وفى الظهر ، وفى اى مكان . ومتأكد بانه لو لا هذا لما استتب النظام هنا .

وبعد ذلك تدخل غرفة كبيرة رحبة . تشغل كل الجنـــاح اذا استثنينا المدخل . والجدران هنا ملطخة بدهان ازرق قذر . والسقف سوده السناج كما فى المنزل الريفى الخالى من المدخنة مما يوضح ان المواقد ترسل دخانها هنا فى الشتاء ويصبح الجو خانقا . والنوافذ قد شوهت منظرها من الداخل قضبان حديدية . والارضية رمادية ومليئة بالشظايا وتفوح فى المكان رائحة الكرنب الحامض ودخان الفتيل والبق والنشادر ، وبسبب هذه الرائحة يخيل اليك للوهلة الاولى انك تدخل حظيرة حيوانات .

وتضم الغرفة اسرة مثبتة فى الارضية . ويجلس عليها او ينام اناس يرتدون ارواب المستشفى الزرقاء وطراطير على الطريقـــة القديمة . انهم المجانين .

ومجموعهم هنا خمسة اشخاص . واحد منهم فقط نبيل الاصل اما البقية فمن الطبقة الوسطى . اولهم من ناحية الباب رجل طويـــل نحيل ، ذو شوارب حمراء لامعة ، وعينين باكيتين ، يجلس مسندا راسه الى يده ويحدق فى نقطة واحدة . وهو حزين ليل نهار ، يهز راسه ويتنهد ، ويبتسم بمرارة . ونادرا ما يشارك فى الاحاديث ، وعادة لا يرد على الاسئلة . ويأكل ويشرب بصورة آلية عندما يقدم له الاكل والشرب . ويبدو من سعاله المضنى الحاد ونحوله وتضرج وجنتيه انه قد بدأ يصاب بالسل .

والشخص التالى له عجوز صغير ، حى ، خفيف الحركة جدا ، ذو لحية قصيرة مدببة وشعر اسود مجعد كشعر الزنجى . وفى النهار يتجول فى العنبر من النافذة الى النافـــذة ، او يجلس فى سريره ، ضاما ساقيه تحته على الطريقة التركية ، ويصفر بلا كلل كطائر الثلج ، ويغنى ويقهقه بصوت خافت . وهو يبدى مرحه الطفولى وطبعه الحى فى الليل ايضا ، عندما ينهض ليصلى ، اى ليـــدق بقبضتيه على صدره وينقب باصبعه فى الابواب . انه اليهـــودى مويسيكا ، الابله ، الذى فقد صوابه منذ حوالى عشرين عاما ، عندما احترقت ورشته الخاصة بتفصيل الطواقى الفرو .

وهو الوحيد من بين نزلاء عنبر رقم ٦ الذى يسمح له بالخروج من الجناح ، بل ومن فناء المستشفى الى الشارع ، وهو يتمتع بهذا الامتياز منذ زمن طويل ، ربما لانه من قدامى المرضى ، ولانه وديع لا يؤذى ، ومضحك المدينة الذى الف الناس رؤيته فى الشوارع محاطا بالصبية والكلاب . يسير عبر الشوارع فى روب قصير وطرطور مضحك وفى حذاء ، واحيانا حافى القدمين بل وحتى بدون سروال ، ويتوقف عند الابواب والدكاكين ويستجدى كوبيكا . ويعطونه فى احد الاماكن كوبا من الكفاس * وفى مكان آخر خبزا ، وفى مكان ثالث كوبيكا ، فيرجع عادة الى الجناح شبعان وغنيا . ولكن نيكيتا يستولى على كل ما يحضره معه . يفعل ذلك بفظاظة وغضب ، وهو يقلب جيوبه ويدعو الله شاهدا على انه لن يسمح بعد ذلك ابدا لليهودى بالخروج الى الشارع ، وعلى انه ليس هناك شىء اسوأ بالنسبة له من الفوضى .

وموسيكا يحب تقديم الخدمات ، فيجلب لزملائه الماء ، ويغطيهم وهم نيام ، ويعد بان يحضر لكل منهم كوبيكا من الخارج ويخيط لكل منهم طاقية فرو جديدة . ويطعم بالملعقة جاره الايسر المشلول ، وهو لا يفعل ذلك بدافع العطف ، ولا لاية اعتبارات انسانية ، بل تقليدا وخضوعا لجاره الايمن جروموف .

وايفان دميتريتش جروموف ، رجل فى حوالى الثالثة والثلاثين ، نبيل الاصل ، محضر محكمة سابق وسكرتير المحافظة ، يعانى من جنون الاضطهاد . فهو اما راقد فى سريره متكورا كالكعكة ، واما يروح جيئة وذهابا من ركن الى ركن ، وكانما يسير للتريض ، ولا يجلس الا نادرا جدا . وهو دائما مضطرب ، منفعل ومتوتر يؤرقه انتظار ما غامض وغير محدد . ويكفى ان يتردد حفيف فى المدخل او صيحة فى الفناء حتى يرفع راسه ويصيخ السمع : اليسوا قادمين فى طلبه ؟ الا يبحثون عنه ؟ ويعبر وجهه فى هذه الحالة عن منتهى القلق والاشمئزاز .

يعجبنى وجهه العريض البارز الوجنتين ، الشاحب والبائس دائما ، والذى تنعكس فيه كما فى المرآة روحه التى عذبها الصراع

* مشروب غير كحولى يصنع من الخبز الاسود المختمر . المعرب

والخوف الطويل ، وحركات وجهه غريبة ومريضة ، بيد ان ملامحه الدقيقة التي غطها في وجهه العذاب الصادق العميق ، خليقة وهادئة ، وفي عينيه بريق دافيء صحي . وهو نفسه يعجبني ، فهو مزدهي ، خدوم ، مهذب بصورة غير عادية في تعامله مع الجميع ما عدا نيكيتا . وعندما يسقط زر او ملعقة من شخص ما ، يقفز بسرعة من فراشه ويرفعها . وكل صباح يهنيء رفاقه بصباح الخير ، وعندما يأوى للنوم يتمنى لهم ليلة سعيدة .

وبالاضافة الى التوتر المستمر وتقلصات وجهه يتجلى جنونه كذلك في التالي . فاحيانا في المساء يلتف بروبه بينما جسده كله يرتعش واسنانه تصطك وهو يروح ويجيء من ركن الى ركن وبين الاسرة . وكان يبدو وكأنه مصاب بحمى شديدة . ومن توقفه المفاجيء وتحديقه في رفاقه كان يلوح انه يريد ان يقضي بشيء هام للغاية ، ولكنه على ما يبدو يدرك ان احدا لن يصغى اليه او يفهمه ، فيهز رأسه بنفاد صبر ويواصل سيره ، الا ان الرغبة في الحديث سرعان ما تتغلب على شتى الاعتبارات ، فيطلق العنان لرغبته ويتكلم بحرارة وحماس . وحديثه مضطرب ، محموم ، كالهذيان ، غير مترابط وليس مفهوما دائما ، الا انك تسمع في كلماته وصوته شيئا طيبا الى اقصى حد . وعندما يتحدث ترى فيه مجنونا وانسانا . ومن الصعب ان تنقل الى الورق حديثه المجنون . وهو يتحدث عن الوضاعة البشرية وعن الطغيان الذى ينتهك الحق ، وعن الحياة الرائعة التي ستكون على الارض بمضي الزمن ، وعن قضبان النوافذ التي تذكره كل لحظة ببلادة الطغاة وقسوتهم . ويتألف من ذلك خليط مشوش متنافر من الاغاني القديمة التي لم تكتمل بعد .

٢

منذ حوالي اثنتي عشرة او خمس عشرة سنة كان الموظف المحترم والميسور الحال جروموف يعيش في المدينة في منزله الخاص الواقع في اهم الشوارع الرئيسية . وكان لديه ولدان ، سرجي وايفان . وقد مرض سرجي وهو طالب في الصف الرابع بالسل وتوفي بسرعة ، وكأنما كانت هذه الوفاة بداية لسلسلة من المصائب

التى انهالت فجأة على اسرة جروموف . فبعد اسبوع من دفن سرجى قدم الاب العجوز للمحكمة بتهمة التزوير والاختلاس وسرعان ما توفى فى مستشفى السجن من التيفوس . وبيع المنـــزل وكل المنقولات بالمزاد العلنى ، واصبح ايفان دميتريتش هو ووالدته دون اى مصدر دخل .

وكان ايفان دميتريتش ، ووالده على قيد الحياة بعد ، يعيش سابقا فى بطرسبرج ، حيث كان يدرس فى الجامعة ، ويتقــاضى ستين — سبعين روبلا فى الشهر ، ولا يدرى ما العوز . اما الآن فقد اضطر الى تغيير مجرى حياته تغييرا حادا . كان عليه ان يعطى من الصباح الى الليل دروسا بخسة ، ويزاول نسخ الكتب ، ومع ذلك يجوع ، لانه كان يرسل كل دخله الى امه لتعيش منه . ولم يستطع ايفان دميتريتش ان يتحمل هذه الحياة ، فانهارت معنوياته ، ومرض فهجر الجامعة ورحل الى داره . وفى هذه المدينة حصـــل بتوصية على وظيفة مدرس فى مدرسة مركز اقليمى ، ولكنه لـم يوفق فى التعايش مع زملائه ولم يعجب الطلبة ، وسرعان ما ترك الوظيفة . ثم ماتت امه . وقضى نصف سنة بلا عمل وهو لا يذوق سوى الخبز والماء ، ثم التحق بوظيفة محضر محكمة . وظل فى هذه الوظيفة الى ان فصل بسبب المرض .

لم تكن تبدو عليه ابدا ملامح الصحة حتى فى سنى شبابـــه الدراسية . بل كان دائما شاحب الوجه ، نحيلا ، سريع الاصابـــة بالبرد وكان يأكل قليلا وينام نوما سيئا ، ومن كأس نبيذ واحدة يدور راسه وتنتابه الهستيريا . كان دائما يميل الى معاشرة الناس ، ولكن بسبب عصبيته وارتيابه لم تربطه علاقة حميمة بأحد ولم يكن لديه اصدقاء . وكان يتحدث عن اهل المدينة دائما باحتقار ويقول ان جهلهم الفظ وحياتهم الحيوانية الناعسة تبدو له حقيرة ومقززة . وكان يتكلم بصوت «تينور» عال وبحرارة ، ولا يتحدث الا بغضب او استنكار ، او باعجاب ودهشة ، ولكن دائما بصدق . وايا كان الموضوع الذى تتحدث معه فيه فهو يحول الحديث الى شىء واحد : فالحياة فى المدينة خانقة مملة ، وليس لدى المجتمـــع اهتمامات سامية ، بل يحيا حياة كابية فارغة وينوعها بالطغيـــان والانحلال الفظ والنفاق . الاوغاد شبعى ومكتسون ، بينما يأكـل

الشرقاء الفتات . لا بد من مدارس وجريدة محلية ذات اتجاه شريف ، ومسرح ، وحفلات القاء عامة وتلاحم القوى المستنيرة ، ينبغي ان يدرك المجتمع نفسه ويرتاع . وكان في احكامه على الناس يضفي الوانا صارخة من الابيض والاسود فقط ولا يعترف بدرجات الالوان . وكانت البشرية لديه مقسمة الى شرفاء واوغاد ، وليس بينهما وسط . وكان يتحدث عن النساء والحب دائما بحماس واعجاب ، رغم انه لم يجرب الحب مرة .

ورغم حدة احكامه وعصبيته كانوا يحبونه في المدينة ، ويدعونه في غيابه فانيا * . وكان تهذيبه الموروث ، وروحه الخدوم ، واستقامته ونقاؤه الخلقي ، وسترته الرثة وهيئته المريضة ومصائبه العائلية تستدر شعورا طيبا دافئا وحزينا . وفوق ذلك فقد كان متعلما ومطلعا بصورة جيدة ، وحسب رأى اهل المدينة كان يعرف كل شيء وكان في المدينة اشبه بكتاب دليل متنقل .

وكان يقرأ كثيرا جدا . كان يجلس طويلا في النادي وهو يعبث بلحيته في عصبية ويقلب المجلات والكتب ، وكان يبدو على وجهه انه لا يقرأ بل يزدرد حتى قبل ان يتمكن من المضغ . ولا بد ان القراءة كانت احدى عاداته المرضية ، لانه كان ينكب بنفس النهم على كل ما تقع عليه يداه ، حتى جرائد وتقويمات العام الماضي . وفي داره كان يقرأ دائما وهو راقد .

٣

ذات صباح خريفي ، سار ايفان دميتريتش عبر الحواري والافنية الخلفية وهو يخوض في الوحل وقد رفع ياقة معطفه ، قاصدا احد المواطنين ليتقاضى منه مبلغا مستحقا بأمر دفع . وكان مزاجه عابسا كما هو الحال دائما في الصباح . وفي احدى الحارات قابل سجينين مكبلين بالاغلال ومعهما اربعة حراس ببنادق . وكان ايفان دميتريتش في الماضي كثيرا ما يقابل المساجين ، وكل مرة كانوا يثيرون فيه مشاعر العطف والحرج ، اما اليوم فقد ترك هذا اللقاء في نفسه

* تدليل من الاسم الكامل ايفان . المعرب .

انطباعا غريبا خاصا . فقد خيل اليه بغتة ولسبب ما انه ايضا يمكن ان يكبل بالاغلال ويساق فى الوحل الى السجن على هذا النحو . وبعد ان زار المواطن التقى فى طريق عودته عند البريد بمفتش شرطة يعرفه فحياه هذا ، وسار بجواره فى الشارع بضع خطوات ، ولسبب ما بدا له هذا مريبا . وفى البيت لازمته طوال اليوم صورة المساجين والحراس ذوى البنادق ، وعاقه عن القراءة والتركيز قلـــق نفسى غامض . وفى المساء لم يشعل الضوء ، ولم ينم طول الليل وهو يفكر فى انه قد يعتقل ويكبل ويلقى به فى السجن . وكان يعرف انه لم يرتكب ذنبا وبوسعه ان يضمن انه فى المستقبل ايضا لن يقتل ولن يحرق ولن يسرق ابدا . ولكن هل من العسير ان يرتكب المرء جريمة عن غير قصد ، بصورة عفوية ، وأليس الافتراء محتمـلا ، واخيرا الا يمكن ان تخطىء المحكمة ؟ وليس عبثا ان الخبرة الشعبية العريقة تقول : «ياما فى الحبس مظاليم» . وفى ظل نظام القضـاء الحالى فان الخطأ محتمل جدا وما اسهل ان يقع . فالاشخاص الذين لهم علاقة وظيفة او عمل بمآسى الآخرين ، كالقضاة ورجال الشرطة والاطباء مثلا ، يكتسبون بمضى الزمن وبحكم العادة مناعة الى درجة انهم لا يستطيعون – حتى لو شاءوا غير ذلك – الا ان يتعاملوا مع زبائنهم بصورة شكلية . ومن هذه الزاوية فهم لا يختلفون فى شىء عن الفلاح الذى يذبح الخراف والعجول فى الفناء الخلفى ولا يلاحظ الدماء . وفى ظل الموقف الشكلى المجرد من المشاعر تجاه الفرد ، لا يعود القاضى بحاجة الا لشىء واحد ، هو الزمن ، لكى يجرد الشخص البرىء من جميع حقوق الملكية ويحكم عليه بالاشغال الشاقـــة . الزمن فقط ، لمراعاة بعض الاجراءات الشكلية التى يتقاضى القاضى راتبه مقابلها ، وبعدها ينتهى كل شىء . ولتبحث بعد ذلك عـــن العدالة والحماية فى هذه المدينة الصغيرة القذرة ، على بعد مائتى فرسخ من السكة الحديدية ! ثم أليس من المضحك ان تفكر فى العدالة والمجتمع ينظر الى اى طغيان وكأنه ضرورة حكيمة معقولة ، بينما يثير اى عمل من اعمال الرحمة ، كالحكم بالبراءة مثلا ، تفجرا هائلا لمشاعر السخط والحنق ؟

نهض ايفان دميتريتش من فراشه فى الصباح مفزوعا ، والعرق البارد يغطى جبينه ، وقد اصبح واثقا تماما من انه قد يعتقل فى

اية لحظة . وفكر فى نفسه بأنه اذا كانت افكار الامس المرهقة لم تفارقه هذه الفترة الطويلة فهذا يعنى ان فيها جانبا من الصحة . فلا يمكن بالفعل ان تراوده دون مبرر .

ومر شرطى على مهل بجوار النوافذ . هذا ليس صدفة . وها هما شخصان قد وقفا قرب المنزل فى صمت . لماذا يصمتان ؟

وحلت ايام وليال مضنية بالنسبة لايفان دميتريتش . كان يخيل اليه ان جميع المارين بجوار النوافذ والداخلين الى الفناء هم من الجواسيس والمخبرين . وكان المفتش يمر كل ظهيرة فى الشارع فى عربة بجوادين ، قادما من ضيعته فى الضاحية الى ادارة الشرطة ، ولكن كان يخيل الى ايفان دميتريتش فى كل مرة انه يسير بسرعة وبتعبير خاص على وجهه : يبدو انه يسرع ليبلغ انه قد ظهر فى المدينة مجرم خطير للغاية . وكان ايفان دميتريتش ينتفض كلما سمع الجرس او دقا على الباب ويشعر بالقلق كلما رأى لدى ربة البيت شخصا جديدا . وعندما يلقى رجال الشرطة والدرك يبتسم ويصفر لكى يبدو غير مبال . لم يكن ينام ليالى بأكملها فى انتظار القبض عليه ، ولكنه كان يشخر ويزفر بصوت عال كالنائم لكى تظن ربة الدار انه نائم . فعدم النوم يعنى ان ضميره يعذبه ، فيا له من دليل ! وكانت الحقائق والمنطق السليم تؤكد له ان كل هذه المخاوف هراء وسيكوباتية ، وان الاعتقال والسجن ، اذا نظرنا الى الامر نظرة اشمل ، ليس فيهما ما يخيف فى الواقع طالما كان ضمير المرء مستريحا . بيد انه كلما فكر بمزيد من التعقل والحكمة ازداد قلقه النفسى شدة وعذابا . وكان ذلك اشبه بالناسك الذى اراد ان يقتطع لنفسه مكانا فى غابة عذراء ، فكلما اعمل فأسه بهمة ، ازدادت الغابة كثافة ونموا . وعندما ادرك ايفان دميتريتش فى النهاية ان كل ذلك لا طائل منه ، ترك عنه التفكير واستسلم تماما لليأس والخوف .

وبدأ ينطوى ويتجنب الناس . وعمله ، الذى كان يمقته سابقا اصبح الآن لا يطاق . كان يخشى ان يدبروا له مكيدة ما ، ان يضعوا فى جيبه رشوة بصورة غير ملحوظة ثم يضبطونه متلبسا بعد ذلك ، او ان يرتكب هو نفسه فى الاوراق الحكومية خطأ عفويا يرقى الى منزلة التزوير ، او ان يضيع نقود العهدة . ومن الغريب ان خياله

لم يكن ابدا مرنا وخصبا كما هو الآن ، اذ كان يتفتق كل يوم عن آلاف الحجج المختلفة التى تجعله يخاف على مصيره وشرفه . ولكن فى مقابل ذلك ضعف الى حد كبير اهتمامه بالعالم الخارجى ، وخاصة بالكتب ، واصبحت ذاكرته تخونه كثيرا .

وفى الربيع ، عندما ذاب الثلج وانحسر ، اكتشفت فى الغور المجاور للمقابر جثتا امراة عجوز وصبى وبهما آثار وفـــاة غير طبيعية . ولم يعد الحديث يدور فى المدينة الا عن هاتين الجثتين والقتلة المجهولين . ولكى لا يظن احد ان ايفان دميتريتش هـــو القاتل ، اخذ يسير فى الشوارع مبتسما ، وعندما يلتقى بمعــارف يشحب وجهه ثم يتضرج ، ويروح يؤكد انه ليس هناك جريمة اشد دناءة من قتل الضعفاء والمساكين . ولكن هذا الكذب سرعان مـــا ارهقه ، وبعد قليل من التفكير قرر ان افضل شىء له فى وضعه هذا ان يختبىء فى قبو ربة الدار . ومكث فى القبو نهارا وليلـــة ونهارا آخر ، وبرد بشدة فانتظر حلول الظلام ثم صعد خفيـة الى غرفته كاللص . ووقف حتى الفجر فى وسط الغرفة بلا حراك وهو يصيخ السمع . وفى الصباح الباكر ، قبل شروق الشمس جاء البناءون الى ربة الدار . وكان ايفان دميتريتش يعلم جيدا انهم جاءوا ليعيدوا بناء الفرن فى المطبخ ، ولكن الخوف صور له انهم رجال شرطـــة متنكرون فى زى بنائين . فخرج من الشقة فى هدوء وبدون سترة او غطاء رأس وقد استولى عليه الرعب ، وركض فى الشـــارع . وانطلقت وراءه الكلاب وهى تنبح ، وصاح خلفه شخص ما ، وصفرت الريح فى اذنيه ، وخيل لايفان دميتريتش ان طغيان العالم كله قد تجمع وراءه يطارده .

وامسكوا به واعادوه الى المنزل وارسلوا ربة الدار لاستدعاء الطبيب . واوصى الطبيب اندريه يفيمتش الذى سنتحدث عنه فيما بعد ، بكمادات باردة على الراس وبقطرات الغار والكرز ، وهز رأسه فى اسى وانصرف بعد ان قال لربة الدار انه لن يعوده بعد ذلك لانه لا ينبغى اعاقة الناس عن الجنون . ولما لم يكن لدى ايفـــــان دميتريتش فى المنزل ما يعيش ويتعالج به فقد ارسلـــوه الى المستشفى ووضعوه هناك فى عنبر الامراض الجنسية . ولم يتـــم

الليالى وهو يتأفف ويزعج المرضى ، وسرعان ما نقلوه بأمر اندريه يفيميتش الى عنبر رقم ٦ .

وبعد عام نسى اهالى المدينة ايفان دميتريتش تماما ، اما كتبه التى كومتها ربة الدار فى المدخل تحت الرف فقد بددها الصبيان .

٤

كان جار ايفان دميتريتش الايسر ، كما قلت ، هو اليهودى مويسيكا ، اما جاره الايمن ففلاح غطاه الشحم ، مستدير تقريبا ، ذو وجه بليد لا يعبر عن اى شىء . كان ذلك حيوانا عديم الحركة ، شرها ، قذر الجسد ، فقد منذ امد بعيد القدرة على التفكير والاحساس . وكانت تنبعث منه باستمرار رائحة عفونة حادة خانقة .

وكان نيكيتا ، الذى ينظف له مكانه ، يضربه بفظاعة وبكل قوته ، غير مشفق على قبضتيه . ولم يكن المرعب فى الامر انهم يضربونه ، فهذا يمكن التعود عليه ، وانما المرعب ان هذا الحيوان البليد لم يكن يند عنه اثناء الضرب صوت او حركة او نظرة . بل كان يتمايل قليلا فحسب ، كبرميل ثقيل .

اما النزيل الخامس والاخير فى عنبر رقم ٦ فكان من الطبقة الوسطى يعمل فى وقت ما فرازا فى البريد ، وكان صغيرا ، نحيلا ، اشقر ذا وجه طيب ولكنه ماكر بعض الشىء . ويبدو من عينيه الذكيتين الهادئتين اللتين تطل منهما نظرة صافية مرحة انه حريص ، ويحتفظ بسر هام للغاية وسار . ولديه تحت المرتبة شىء ما لا يريه لاحد ، لا خوفا من ان يخطفوه منه او يسرقوه ، بل خجلا . واحيانا يقترب من النافذة ، ويولى ظهره لرفاقه ، ويرتدى شيئا ما على صدره ويتطلع وقد احنى راسه . واذا اقترب منه احد فى تلك اللحظة يرتبك وينزع شيئا ما عن صدره . بيد انه ليس من الصعب معرفة سره .

وكثيرا ما يقول لايفان دميتريتش :

– هنئنى ، لقد رشحت لوسام ستانيسلاف من الطبقة الثانية وبنجمة . الطبقة الثانية بالنجمة لا يمنح الا للاجانب ولكنهم لسبب ما يريدون تقديم هذا الاستثناء لى – ويبتسم ويهز كتفيه مستغربا – اصارحك لم اكن اتوقع هذا !

فيقول ايفان دميتريتش بتجهم :
ـ انا لا افهم شيئا فى هذه الامور .
فيستطرد الفراز السابق وهو يزر عينيه بمكر :
ـ ولكن اتدرى ما الذى سابلغه عاجلا ام آجلا ؟ سوف احصل حتما على «النجم القطبى» السويدى . انه وسام يستحق ان تسعى من اجله . صليب ابيض وشريط اسود . انه جميل جدا .

وربما لا تسير الحياة فى اى مكان آخر بمثل هذه الرتابة كما فى الجناح . ففى الصباح يغتسل المرضى ، ما عدا المشلول والفلاح السمين ، فى الردهة من وعاء كبير ويجففون وجوههم بذيول اروابهم . وبعد ذلك يشربون فى اكواز معدنية الشاى الذى يأتى به نيكيتا من المبنى الرئيسى . ويخص كلا منهم كوز واحد . وفى منتصف النهار يتناولون حساء من الكرنب الحامض وعصيدة ، وفى المساء يتعشون بالعصيدة المتبقية من الغداء . وبين ذلك يستلقون وينامون ويتطلعون من النوافذ ويسيرون من ركن الى ركن . هكذا كل يوم . وحتى الفراز السابق يتحدث دائما عن الاوسمة نفسها .

ونادرا ما يرى احد حديث فى عنبر رقم ٦ . فالدكتور لم يعد من زمن طويل يقبل مجانين جددا ، اما هواة زيارة مستشفيات المجانين فقليلون فى هذا العالم . ومرة كل شهرين يأتى الحلاق سيميون لازريتش الى الجناح . ولن نروى هنا كيف يحلق للمجانين ، وكيف يعاونه نيكيتا فى ذلك ، ومدى الاضطراب الذى يعترى المرضى فى كل مرة يظهر فيها الحلاق الثمل المبتسم .

وبخلاف الحلاق لا يزور الجناح احد . لقد حكم على المرضى الا يروا يوما بعد يوم غير نيكيتا .

بيد انه ترددت فى مبنى المستشفى منذ فترة قريبة شائعة غريبة الى حد كبير .

لقد قيل ان الدكتور اخذ يتردد على عنبر رقم ٦ .

٥

شائعة غريبة !

فالدكتور اندريه يفيميتش راجين انسان رائع من نوعه ، ويقال انه كان فى صباه شديد التدين ويعد نفسه للخدمة الدينية ، وانه

بعد ان انهى الدراسة فى المدرسة عام ١٨٦٣ كان يعتزم الالتحاق بالاكاديمية الدينية ، ولكن اباه ، الدكتور الجراح ، سخر منه سخرية لاذعة ، واعلن له بشكل قاطع انه لن يعتبره ابنا له اذا ما اصبح قسيسا . ولست ادرى ما مدى صحة ذلك ، ولكن اندريه يفيميتش نفسه اعترف غير مرة انه لم يشعر ابدا بميل للطب وللعلوم المتخصصة بشكل عام .

وايا كان الامر فبعد ان تخرج من كلية الطب لم يصبح قسيسا . ولم يبد عليه تدين خاص ، وكان فى بداية حياته العملية قليل الشبه برجل الدين ، مثلما هو الآن ايضا .

كانت هيئته ثقيلة ، خشنة ، كهيئة فلاح . وكان بوجهه ولحيته وشعره المسطح وبدنه القوى غير المتناسق اشبه بصاحب حانة على طريق رئيسى ، متخم ، متهور ، وحاد الطباع . كان وجهه قاسيا ، مغطى بعروق زرقاء ، وعيناه صغيرتين وانفه احمر . والى جانب قامته الطويلة وكتفيه العريضتين كان ضخم الساقين واليدين ، حتى ليخيل اليك انه لو لكم لكمة لازهق الروح . ولكن وقع خطواته كان خفيفا ومشيته حذرة ، متلصصة ، وعندما يقابل احدا فى ممشى ضيق يبادر الى التوقف ليفسح الطريق ، ويقول لا بصوت غليظ كما تتوقع ، بل بصوت رفيع لين : «اسف» . وفى رقبته ورم صغير يعوقه عن ارتداء الياقات المنشاة الصلبة ، ولذلك يرتدى دائما قميصا ناعما من الكتان او الشيت . وعموما فهندامه ليس هندام دكتور . فهو يلبس نفس البدلة حوالى عشر سنوات ، اما الملابس الجديدة التى يبتاعها عادة فى متجر يهودى فتبدو عليه مستعملة ومجعدة كملابسه القديمة . وكان فى السترة نفسها يستقبل المرضى ويتناول الغداء ويزور المعارف . ولم يكن ذلك بسبب البخل ، بل لعدم اهتمامه بمظهره على الاطلاق .

وعندما وصل اندريه يفيمتش الى المدينة ليتسلم عمله كان المستشفى فى حالة فظيعة . كان من الصعب ان تتنفس فى العنابر والطرقات وفناء المستشفى من العفونة . وكان خدم المستشفى والمربيات واولادهم ينامون فى العنابر مع المرضى . وتعالت الشكوى من الصراصير والبق والفئران . وفى قسم الجراحة لم ينقطع مرض الحمرة ولم يكن فى المستشفى كلها سوى مشرطين وليس بها

ترمومتر واحد . وكانوا يحفظون البطاطس فى احواض البانيو . وكان المشرف وامينة مخزن الملابس والحكيم يسرقون المرضى ، وقيل ان الدكتور العجوز ، سلف اندريه يفيميتش كان يمارس سرا بيع كحول المستشفى ، وكون لنفسه حريما كاملا من المربيات والمريضات . وكانوا يعرفون فى المدينة هذه الفوضى تمام المعرفة بل ويبالغون فى وصفها ، لكنهم نظروا اليها بهدوء . كان البعض يبررها بـان المستشفى لا ينزل به سوى متوسطى الحال والفلاحين ، وهؤلاء لا يمكن ان يكونوا غير راضين لان حياتهم فى المنزل اسوأ بكثير من المستشفى ، ومن غير المعقول ان تقدم لهم الديوك البرية ! ويبررها البعض الآخر بان المدينة وحدها ، دون مساعدة مجلس الاقليم ، غير قادرة على تأمين مستشفى جيد ، والحمد لله ان لدينا مستشفى حتى لو كان سيئا . اما مجلس الاقليم فلم يفتح مستشفـى لا فى المدينة ولا قربها تذرعا بان للمدينة مستشفاها .

وبعد ان تفقد اندريه يفيميتش المستشفى توصل الى استنتاج بان هذه المؤسسة لااخلاقيـة ومضرة الى اقصى حد بصحة النزلاء . وكان من رأيه ان اصوب ما يمكن عمله هو اطلاق سراح المرضى واغلاق المستشفى . ولكنه ادرك ان ارادته وحدها لا تكفى لذلك وانه لا فائدة من هذا ؛ فاذا ازيلت القذارة الجسدية والخلقية مـن مكان فسوف تنتقل الى مكان آخر . . . ينبغى الانتظار الى ان تتبخر بنفسها . وعلاوة على ذلك فاذا كان الناس قد افتتحوا مستشفـى ويتحملون بقاءه لديهم فمعنى ذلك انهم بحاجة اليه . فالخزعبـلات وكل هذه الوضاعة والحقارة المعيشية مطلوبة لانها بمضى الزمـن تتحول الى شىء مفيد ، كما يتحول الروث الى سماد . وليس هناك فى الدنيا شىء طيب الا وكان فيه شىء حقير فى اصله .

ويبدو ان اندريه يفيميتش ، بعد ان تسلم الوظيفة ، نظر الى تلك الفوضى نظرة لامبالية الى حد كبير . ولم يفعل سوى ان طلب من خدم المستشفى والمربيات الا يبيتوا فى العنابر ، ووضع صوانين بهما ادوات جراحة . اما المشرف وامينة مخزن الملابس والحكيـم ومرض الحمرة فقد ظلوا فى اماكنهم .

واندريه يفيميتش يهوى للغاية الحكمة والشرف ، بيد انه لا يملك من الارادة والايمان بحقه ما يكفى لكى يجعل الحياة من حوله

حكيمة وشريفة . وهو لا يجيد ابدا اصدار الاوامر والمنع والاصرار . وكأنه قطع على نفسه عهدا بألا يرفع صوته ابدا والا يستخدم صيغة الامر . ومن الصعب عليه ان يقول «اعطنى» او «هات» . وعندما يريد ان يأكل ، يسعل بتردد ويقول للطاهية : «لو امكن شاى . . .» او «لو امكن ان اتغدى» . وان يقول للمشرف بان يكف عن السرقة ، او ان يطرده، او يلغى تماما هذه الوظيفة التى لا داعى لها ، فهذا امر لا يقوى عليه ابدا . وعندما يخدعون اندريه يفيميتش او يتملقونه ، او يقدمون له حسابا مزورا عمدا ليوقع عليه فانه يحمر كسرطان البحر ، ويحس بنفسه مذنبا ، بيد انه يوقع الحساب . وعندما يشكو له المرضى من الجوع او من فظاظة المربيات ، يخجل ويدمدم بنبرة اعتذار :

– حسنا ، حسنا ، سأنظر فى ذلك فيما بعد . . . يبدو ان هناك سوء فهم . . .

وفى الايام الاولى عمل اندريه يفيميتش باجتهاد كبير . كان يستقبل المرضى كل يوم من الصباح الى الظهر ، ويجرى العمليات الجراحية، بل ويمارس التوليد . وقالت عنه النساء انه معتن ويخمن الامراض بصورة ممتازة وخاصة امراض الاطفال والنساء . ولكن بمرور الزمن سئم العمل بشكل ملحوظ لرتابته وعدم جدواه الواضح . فاليوم تستقبل ثلاثين مريضا ، واذا بك تستقبل غدا خمسة وثلاثين ، وبعد غد اربعين ، وهكذا يوما بعد يوم ، وعاما بعد عام ، بينما نسبة الوفيات فى المدينة لا تقل ، ولا يكف المرضى عن المجىء . وليس هناك امكانية بدنية لمساعدة اربعين مريضا مساعدة جدية من الصباح حتى الظهر ، اذن فالنتيجة محض خداع رغما عنك . ويكتب فى التقرير السنوى انه تم الكشف على اثنى عشر الف مريض خارجى ، اى ببساطة تم خداع اثنى عشر الف شخص . كذلك فمن المستحيل وضع المرضى الخطرين فى العنابر ومعالجتهم حسب القواعد العلمية لان القواعد موجودة اما العلم فغير موجود . واذا ما تركنا الفلسفة جانبا واتبعنا القواعد بدقة ، كما يفعل اطباء آخرون ، فلا بد اولا من توفر النظافة والتهوية لا القذارة ، والغذاء السليم لا حساء الكرنب الحامض الكريه الرائحة ، والمعاونين الجيدين لا اللصوص .

20*

وعموما فلماذا نمنع الناس من ان يموتوا طالما ان الموت هو النهاية الطبيعية المشروعة لكل انسان ؟ وما جدوى ان يعيش تاجر او موظف خمسة او عشرة اعوام زيادة ؟ واذا اعتبرنا ان هدف الطب هو ان تخفف الادوية الآلام فان السؤال الذى يثور لاارادیا هو : وما الداعى لتخفيفها ؟ فاولا : يقال ان الآلام تفضى بالانسان الى الكمال ، وثانيا : لو ان البشرية تعلمت بالفعل ان تخفف آلامها بالحبوب والقطرات ، فسوف تهجر تماما الدين والفلسفة ، اللذين وجدت فيهما حتى الان لا مجرد الحماية من شتى المصائب ، بل والسعادة كذلك . لقد عانى بوشكين قبل موته عذابا رهيبا ، وهاينى المسكين رقد مشلولا عدة سنوات ، فلماذا لا يمرض من يدعى اندريه يفيميتش او ماتريونا سافيتشنا ، اللذان تعتبر حياتهما تافهة ، ولولا الآلام لاصبحت فارغة تماما كحياة الاميبا ؟

واثقلت هذه الافكار على اندريه يفيميتش فتراخى ولم يعد يتردد على المستشفى كل يوم .

٦

تسير حياته على النحو التالى . يستيقظ عادة فى الثامنة صباحا ، فيرتدى ملابسه ويتناول الشاى . ثم يجلس الى مكتبه ليقرا او يذهب الى المستشفى . وهنا ، فى المستشفى ، وفى طرقة ضيقة مظلمة يجلس المرضى الخارجيون فى انتظار الكشف . ومن جوارهم يهرول الخدم والمربيات وهم يدقون باحذيتهم على الارضية الحجرية ، ويمر المرضى الهزالى فى اردية المستشفى . وينقل الموتى والاوعية بالفضلات ، ويبكى الاطفال ، وتهب تيارات الهواء . واندريه يفيميتش يعلم ان هذا الوضع بالنسبة للمرضى بالحمى والمسلولين ، وعموما للمرضى السريعى التاثر ، وضع معذب ، ولكن ما العمل ؟ ويقابله فى غرفة الاستقبال الحكيم سرجى سرجييتش ، وهو رجل صغير بدين ، ذو وجه نظيف حليق مكتنز ، وحركات ناعمة انسيابية ، وفى حلة جديدة فضفاضة ، ويبدو اكثر شبها بسناتور منه بحكيم . وله فى المدينة زبائن لا حد لهم ، وهو يضع ربطة عنق بيضاء ويعتبر نفسه اكثر الماما من الدكتور الذى ليس لديه

اى زبائن . وفى ركن غرفة الاستقبال ايقونة كبيرة فى اطار وقنديل ثقيل ، وبالقرب منها حامل فى غلاف ابيض . وعلى الجدران صور الاساقفة ومنظر لدير سفيتاجورسك واكاليل من الزهور البريـــة الجافة . وسرجى سرجيتش رجل متدين يحب الرونق والجلال . وقـد وضع الايقونة على نفقته . وفى الآحاد يتلو احد المرضى بامر منه الدعاء بصوت مسموع ، وبعد التلاوة يقوم سرجى سرجيتش بنفسه بالمرور على جميع العنابر بالمبخرة وهو يطلق البخور .

ولكثرة المرضى وقلة الوقت يقتصر الامر على سؤال سريـــع للمريض واعطائه دواء ما ، مرهم مثلا او شربـــة زيت الخروع . ويجلس اندريه يفيميتش معتمدا بخده على قبضته ومستغرقا فى التفكير ويوجه الاسئلة آليا . وسرجى سرجيتش جالس ايضا يفرك يديه ويتدخل احيانا قائلا :

– نمرض ونعانى من الفقر لاننا لا نصلى للرب الرحيم جيدا . نعم !

واثناء الكشف لا يجرى اندريه يفيميتش اية عمليات جراحية ، فقد نسى كيف يقوم بها منذ زمن بعيد واصبح منظر الدماء يثير فيه اضطرابا كريها . وعندما يضطر الى فتح فم طفل لينظر فى حلقه بينما يصرخ الطفل ويحمى نفسه بيديه ، يدور راسه من الطنين فى اذنيه وتدمع عيناه . ويسارع الى كتابة الدواء ويشيح بيديه لكى تنصرف المراة بالطفل سريعا .

واثناء الكشف سرعان ما يمل من وجل المرضى وقلة حيلتهم ، ومن وجود سرجى سرجيتش الجليل بقربه ، ومن الصور المعلقة على الجدران ، ومن اسئلته هو التى يوجهها دون تغيير منذ حـــوالى عشرين سنة . فينصرف بعد الكشف على خمسة او ستة مرضى . اما البقية فيكشف عليهم الحكيم .

ويعود اندريه يفيميتش الى المنزل بفكرة سارة وهى انه والحمد لله لم يعد يملك عيادة خاصة منذ زمن بعيد ، ومن ثم فلن يزعجه احد ، فيجلس على الفور فى غرفة المكتب ويشرع فى القراءة . وهو يقرا كثيرا وباستمتاع كبير دائما . وينفق نصف راتبـه فى شراء الكتب ، وتغص ثلاث حجرات فى شقته المكونة من ست غـــرف بالكتب والمجلات القديمـــة . ويهوى اكثر شىء كتب التاريـــخ

20—9



والفلسفة ، اما فى الطب فلا يشترك سوى فى مجلة «الطبيب» التى يبدأ قراءتها دائما من آخر صفحة . ويستمر فى القراءة كل مرة عدة ساعات بدون راحة ولا يتعب . وهو لا يقرأ بتلك السرعة والاندفاع مثلما كان يقرأ ايفان دميتريتش فى وقت ما ، بل ببطء وتمعن . وكثيرا ما يتوقف عند المواضع التى تعجبه او التى لا يفهمها . وبجوار الكتاب يوجد دائما ابريق فودكا وخيارة مملحة او تفاحة مخللة موضوعة على جوخ المكتب مباشرة بدون طبق . وكل نصف ساعة يصب لنفسه قدح فودكا ، وهو لا يحول عينيه عن الكتاب ، ويشربه ، ودون ان ينظر يتحسس الخيارة ويقضم منها قطعة .

وفى الساعة الثالثة يقترب من باب المطبخ بحذر ويسعل ثم يقول :

– يا داريوشكا ، لو امكن ان اتغدى . . .

وبعد الغداء السيىء والكريه يتجول اندريه يفيميتش فى غرف شقته وقد عقد ذراعيه على صدره وراح يفكر . وتدق الساعة الرابعة ، ثم الخامسة بينما لا يزال يتجول ويفكر . واحيانا يصر باب المطبخ ، ويطل منه وجه داريوشكا الاحمر الناعس . وتسأله بقلق :

– يا اندريه يفيميتش ، الم يحن الوقت لتناول البيرة ؟

فيرد :

– كلا ، ليس بعد . . . سأنتظر . . . سأنتظر . . .

ويأتى عادة فى المساء مدير مكتب البريد ميخائيل افيريانيتش ، الانسان الوحيد فى المدينة كلها الذى لا تثقل صحبته على اندريه يفيميتش . كان ميخائيل افيريانيتش فى وقت ما اقطاعيا غنيا جدا يخدم فى سلاح الفرسان ، ولكنه افلس ، واضطره العوز الى الالتحاق بادارة البريد وهو فى شيخوخته . وكان ذا هيئة نشطة صحيحة ، وسالفين اشيبين فاخرين ، وحركات مهذبة وصوت جهورى لطيف ، وهو انسان طيب ، حساس ولكنه سريع الغضب . وعندما يحتج احد زوار مكتب البريد ويبدى عدم موافقته او حتى يشرع فى النقاش يتضرج وجه ميخائيل افيريانيتش بحمرة قانية ، ويرتعش بدنه كله ويصرخ بصوت كالرعد : «اخرس !» ، حتى ان مكتب البريد اكتسب منذ امد طويل سمعة المؤسسة المرعبة لمن يزورها .

وميخائيل افيريانيتش يحترم اندريه يفيميتش ويحبه لثقافته ونبل اخلاقه ، اما الاخرون فينظر اليهم بتعال ، نظرته الى مرؤوسيه .

ويقول وهو يدخل على اندريه يفيميتش :

– ها انذا ! مرحبا يا عزيزى ! اظن اننى قد اثقلت عليك ، هه ؟

فيرد الدكتور :

– بالعكس ، انا سعيد جدا . انا دائما اسعد برؤياك .

ويجلس الصديقان فى غرفة المكتب على كنبة ، ويدخنان فى صمت بعض الوقت .

ثم يقول اندريه يفيميتش :

– يا داريوشكا ، لو امكن بيرة . . .

ويشربان الزجاجة الاولى ايضا فى صمت . . يشرب الدكتور مستغرقا فى التفكير ، وميخائيل افيريانيتش ف هيئة مرحة متهللة كالشخص الذى لديه قصة مشوقة جدا سيرويها . والدكتور هو الذى يبدأ الحديث دائما .

– مما يؤسف له – يقول ببطء وصوت خافت وهو يهز راسه ولا يتطلع الى عينى محدثه (وهو لا ينظر ابدا فى العينين) – مما يؤسف له اشد الاسف يا ميخائيل افيريانيتش المحترم ، انه لا يوجد فى مدينتنا على الاطلاق اناس يستطيعون ويحبون ان يتحدثوا حديثا ذكيا شيقا . هذه خسارة كبيرة لنا . حتى المثقفون لا يرقون فوق مستوى الوضاعة . اؤكد لك ان مستوى رقيهم لا يعلو ابدا على مستوى الطبقة الدنيا .

– صحيح تماما . انا متفق معك .

ويستطرد الدكتور بصوت خافت وبتمهل :

– انت نفسك تعلم ان كل شىء فى هذه الدنيا تافه وممل باستثناء اسمى مظاهر العقل الانسانى . فالعقل يضع فاصلا حادا بين الحيوان والانسان ملمحا الى الوهية الاخير ، والى حد ما يعوضه عن الخلود الذى لا وجود له . وانطلاقا من هذا يصبح العقل المصدر الوحيد المتاح للمتعة . اما نحن فلا نسمع ولا نرى من حولنا العقل ، فاذن نحن محرومون من المتعة . صحيح ان لدينا كتبا ، ولكن ذلك يختلف تماما عن الحديث الحى والتخاطب . واذا سمحت لى ان الجأ

الى تشبيه غير موفق تماما فان الكتب هى النوتة ، اما الحديث فهو الغناء .

– صحيح تماما .

ويسود الصمت . وتخرج داريوشكا من المطبخ وعلى وجهها تعبير حزن بليد ، وتعتمد على قبضتها بوجهها وتقف فى الباب لكى تسمع .

ويتنهد ميخائيل افيريانيتش قائلا :

– ايه ! اتريد عقلا من هؤلاء !

ثم يروح يتحدث عن ان الحياة فى الماضى كانت رائعة ومرحة وشيقة ، وكم كان المثقفون فى روسيا اذكياء ، وكم كانوا يقدرون تقديرا عاليا مفاهيم الشرف والصداقة . كانوا يقرضون النقود دون إيصال ، وكان يعد من العار الا تمد العون لرفيق محتاج – ويا للرحلات ، والمغامرات ، والمصادمات ، ويا للرفاق ويا للنساء ! والقوقاز . . يا له من بقعة مدهشة ! وهناك زوجة قائد احدى الكتائب ، امرأة غريبة ، كانت ترتدى زى الضباط وتصعد الجبال فى المساء وحدها ، دون دليل . ويقال انها كانت على علاقة غرامية باحد الامراء الصغار فى القرى الجبلية .

فتتنهد داريوشكا قائلة :

– ايتها السيدة العذراء ، الرحمة . . .

– وكيف كانوا يشربون ! كيف كانوا يأكلون ! واى ليبراليين جسورين كانوا بينهم !

ويصغى اندريه يفيميتش اليه ولا يسمع ، فهو يفكر فى شىء ما ويجرع البيرة . ويقول فجأة مقاطعا ميخائيل افيريانيتش :

– كثيرا ما ارى فى الحلم اناسا اذكياء وانا اتحدث معهم . لقد منحنى ابى تعليما ممتازا ، ولكنه ، تحت تأثير افكار الستينات ، اجبرنى ان اصبح طبيبا . ويخيل الى اننى لو لم اطاوعه آنذاك لكنت الآن فى قلب الحركة الفكرية . وربما كنت منضما الى عضوية كلية ما . العقل بالطبع شىء غير خالد بل زائل ، ولكنك تعلم الآن لماذا اشعر بالميل اليه . فالحياة فخ محزن . وعندما يحقق الشخص المفكر فرصته ويبلغ وعيه درجة النضج ، يحس بنفسه لاإراديا وكأنه قد وقع فى فخ لا مهرب منه . وبالفعل ، فقد جاء الى الحياة

من العدم رغم ارادته بفعل عوامل عارضة . . . فلماذا ؟ انه يريد ان يعرف مغزى وهدف وجوده فلا يقال له ، او تقال له حماقات . ويدق الباب فلا يفتح له احد . ويأتيه الموت . . ايضا رغم ارادته . وهكذا ، كما فى السجن ، عندما يشعر الاشخاص الذين جمعتهم المأساة المشتركة بنوع من الارتياح عندما يجتمعون معا ، كذلك فى الحياة ، لا يحس الاشخاص الميالون الى التحليل والتعميم بوجود الفخ عندما يجتمعون معا ويقضون الوقت فى تبادل الافكار الحرة الابية . وبهذا المعنى يعتبر العقل متعة لا بديل لها .

– صحيح تماما .

ويمضى اندريه يفيميتش ، دون ان يتطلع فى عينى محدثه ، فى الحديث بصوت خافت مع فواصل صمت عن الاشخاص الاذكياء والحديث معهم ، بينما يصغى ميخائيل افيريانيتش اليه بانتباه ويصدق على ما يقول : «صحيح تماما» .

وفجأة يسأل مدير البريد :

– الا تؤمن بخلود الروح ؟

– كلا ، يا ميخائيل افيريانيتش الموقر ، لا أومن ، وليس لدى سند للايمان .

– اصارحك بأنى ايضا اشك . ومع ذلك فلدى احساس بأنى لن اموت ابدا . واحيانا اقول لنفسى : ايه ايها العجوز لقد حان الوقت لتموت ! ولكن صوتا فى داخلى يقول : لا تصدق ، لن تموت ! . .

وفى بداية الساعة العاشرة ينصرف ميخائيل افيريانيتش . ويقول متنهدا وهو يرتدى معطفه فى المدخل :

– انظر الى اى ركن مجهور القت بنا الاقدار ! اكثر ما يحزن اننا سنموت هنا . ايه ! . .

٧

بعد ان يودع اندريه يفيميتش صديقه يجلس الى الطاولة ويشرع فى القراءة ثانية . ولا يعكر صمت المساء ثم بعد ذلك صمت الليل اى صوت ، ويبدو وكأن الزمن قد توقف وتسمر مع الدكتور فوق الكتاب ، ويبدو وكأنما لا يوجد شىء غير هذا الكتاب والمصباح

ذى الغطاء الاخضر ، وشيئا فشيئا يتهلل وجه الدكتور الخشن الفلاحى بابتسامة هيام واعجاب بحركة العقل الانسانى . ويقول لنفسه : اوه ، لِمَ لا يكون الانسان خالدا ؟ وما الداعى لمراكز المخ وتجاعيده ، ما الداعى للبصر والكلام والاحساس والعبقرية ، اذا كان مقدرا لكل هذا ان يواريه التراب ويبرد فى النهاية مع قشرة الارض ، ثم يدور بعد ذلك ملايين السنين حول الشمس بلا معنى ولا غاية ؟ فلكى يبرد ثم يدور بعد ذلك ، لا داعى ابدا لاستخراج الانسان من العدم بعقله السامى الذى يكاد يكون عقل اله ، ثم تحويله بعدها الى تراب وكأنما سخرية به .

التمثيل الغذائى ! ولكن يا له من جبن ان يعزى المرء نفسه ببديل الخلود هذا ! ان العمليات غير الواعية التى تجرى فى الطبيعة هى ادنى قدرا حتى من الحماقة الانسانية ، لان الحماقة فيها مع ذلك وعى وارادة ، بينما ليس فى العمليات ادنى شىء . ان الجبان وحده ، والذى لديه من الخوف امام الموت اكثر مما لديه من الكرامة ، هو الذى يمكن ان يعزى نفسه بان جسده سوف يعيش مع الزمن فى العشب والحجر والضفدعة . . . ان يرى المرء خلوده فى التمثيل الغذائى هو على نفس القدر من الغرابة مثلما تتنبأ بمستقبل باهر لصندوق الكمان بعد ان تحطم الكمان القيم واصبح غير صالح للاستعمال .

وعندما تدق الساعة يضطجع اندريه يفيميتش على ظهر المقعد ويغمض عينيه لكى يفكر قليلا . وعن غير قصد ، تحت تأثير الافكار الجيدة التى قرأها فى الكتب ، يلقى نظرة على ماضيه وحاضره . الماضى كريه ، من الافضل الا يتذكره . والحاضر مثله مثل الماضى . فهو يعلم انه فى الوقت الذى تدور افكاره مع الارض الباردة حول الشمس ، هناك على مقربة من شقته ، وفى مبنى المستشفى الرئيسى يعانى اناس تحت وطأة المرض والقذارة الجسدية . وربما بينهم من لا ينام الآن وهو يصارع الحشرات ، ومن يصاب بالحمرة او يئن من الضمادة المربوطة بشدة . وربما يلعب المرضى الورق مع الممرضات ويجرعون الفودكا . فى التقرير السنوى تم خداع اثنى عشر الف شخص . وكل امور المستشفى ، كما كانت منذ عشرين عاما ، قائمة على السرقة والمشاجرات والاقاويل والمحسوبية ، وعلى

الشعوذة الفظة ، ولا يزال المستشفى ، كما كان ، مؤسسة لااخلاقية وضارة للغاية بصحة النزلاء . وهو يعلم ان نيكيتا يضرب المرضى فى عنبر رقم ٦ خلف القضبان ، وان مويسيكا يطوف بالمدينة كل يوم ويجمع الصدقات .

ومن ناحية اخرى فهو يعلم جيدا انه خلال السنـــوات الخمس والعشرين الماضية حدث تحول اسطورى فى الطب . فعندمـــا كان يدرس فى الجامعة خيل اليه ان الطب سيؤول عما قريب الى ما آلت اليه الخيمياء * والميتافيزيقا ، اما الآن وعندما يقرأ فى الليل فان الطب يهزه ويثير فيه الدهشة ، بل والاعجاب . وبالفعل فيا له من رقى غير متوقع ، يا لها من ثورة ! فبفضل مضادات التقيح تجرى العمليات التى كان بيروجوف العظيم يعتبرهـــا مستحيلـــة حتى in spe ** . واطباء الارياف العاديون يقدمون على اجراء عمليـــة استئصال مفصل الركبة ، ومن كل مائة عملية شق الرحم تحـــدث حالة وفاة واحدة ، اما مرض الحصى فيعتبر من التفاهة بحيث انهم حتى لا يكتبون عنه . وثمة علاج جذرى للزهرى ، ونظرية الوراثة ، والتنويم المغنطيسى واكتشافات باستير وكوخ ، والوقاية وطبنا الروسى الريفى ؟ ان علم الامراض النفسية بتقسيمـــــه الحـــالى للامراض ، وطرق الاكتشاف والعلاج ، هو ، بالمقارنة مع ما كان فى الماضى ، جبل كامل . المجانين الآن لا يعالجون بصب الماء البارد على رؤوسهم ، ولا يلبسونهم قمصان الكتاف بل يعاملونهم معاملة انسانية ، بل وكما تكتب الصحف يقيمون لهم التمثيليات والحفلات . واندريه يفيميتش يعرف انه فى ظل الآراء والاذواق الراهنة فـان وضاعة مثل عنبر رقم ٦ لا يمكن ان توجد الا على بعد مائتى فرسخ من السكة الحديدية ، وفى مدينة رئيسها وجميع نواب بلديتها من صغار البرجوازيين انصاف المتعلمين الذين يرون فى الطبيب كاهنا ينبغى تصديقه بلا اى انتقاد حتى لو صـــب فى الفم قصديـرا مصهورا . ولو كان هذا فى مكان آخر لكان الجمهور والصحافة قـد مزقا قلعة الباستيل الصغيرة هذه اربا منذ زمن بعيد .

---

* الكيمياء القديمة التى لم تكن قائمة على اسس علميـــة بل على الشعوذة والسحر . **المعرب** .

** فى المستقبل (باللاتينية فى الاصل) . **المعرب** .

ويسأل اندريه يفيميتش نفسه وهو يفتح عينيه : «ثم ماذا ؟ ما الذى تمخض عن هذا ؟ حقا هناك مضادات التقيح وكوخ وباستير ولكن جوهر الامر لم يتغير ابدا . فالمرض والموت ظلا كما هما . والمجانين يشهدون التمثيليات والحفلات ، ومع ذلك لا يطلـــق سراحهم اذن فكل ذلك هراء واباطيل . وليس هناك فى الواقع اى فرق بين عيادة جيدة فى فيينا وبين مستشفاى» .

ولكن الحزن واحساسا يشبه الحسد يعوقانه عن ان يكـــون لامباليا . يبدو ان ذلك من اثر الارهاق . ويميل رأسه المثقل على الكتاب ، فيضع يديه تحت وجهه ليجعل منهما وسادة لينـــة ، ويفكر :

«اننى اخدم قضية مضرة واتقاضى اجرا من الناس الذين اخدعهم . انا غير شريف ولكننى فى حد ذاتى لست شيئا ، انا مجرد جزء صغير من الشر الاجتماعى المطلوب : جميع موظفى الاقاليـــم مضرون ويتقاضون اجورهم عبثا . . . اذن فلست انا المذنب فى عـــدم شرفى ، بل الزمن . . . لو انى ولدت بعد مائتى عام لكنت شخصا آخر» .

وعندما تدق الساعة الثالثة يطفىء المصباح ويتجه الى غرفـــة النوم . ولا يشعر برغبة فى النوم .

٨

منذ حوالى عامين تكرم مجلس الاقليم فقرر تخصيص ثلاثمائـــة روبل سنويا كمساعدة لتعزيز الطاقم الطبى فى مستشفى المدينة لحين افتتاح مستشفى للاقليم ، ودعت المدينة الطبيب الريفـــى يفجينى فيودوروفيتش خوبوتوف لمعاونة اندريه يفيميتش . وكان هذا شخصا شابا للغاية – لم يبلغ الثلاثين بعد – اسود الشعر ، طويل القامة ذا وجنتين عريضتين وعينين صغيرتين ، اذ يبدو ان جدوده كانوا اجانب . وقد جاء الى المدينة خاوى الوفاض ، بحقيبة صغيرة وامرأة شابة دميمة يسميها طاهيته . ولدى هذه المرأة طفل رضيع . ويحمل يفجينى فيودوروفيتش «كسكتة» وحذاء برقبة ، وفى الشتاء معطفا قصيرا . وتوثقت صلته بالحكيم سرجـــى سرجيتش

وبالصراف ، اما بقية الموظفين فيسميهم لسبب ما بالارستقراطيين ويتجنبهم . وليس فى شقته كلها سوى كتاب واحد هو «احدث وصفات عيادة فيينا لعام ١٨٨١» . وعندما يتوجه لزيارة مريض ياخذ معه دائما هذا الكتاب . وفى المساء يلعب البليـــاردو فى النادى ، ولا يحب لعب الورق . ويهوى فى كلامه استخدام كلمات مثل : التسويف ، وخزعبلات بالخل ، وكفاك مراوغة .

وهو يتردد على المستشفى مرتين فى الاسبوع ، ويطـــوف بالعنابر ويستقبل المرضى . ويثير سخطه انعدام مضادات التقيح وكاسات الهواء ، ولكنه لا يضع نظما جديدة خوفا من ان يهين بذلك اندريه يفيميتش . وهو يعتبر زميله اندريه يفيميتش محتالا عجوزا ، ويظن ان لديه اموالا كثيرة ويحسده فى سريرته . ويود لو حل محله .

٩

فى احدى امسيات الربيع فى نهاية مارس ، عندما لم يعد هناك ثلج على الارض ، وصدحت فى فناء المستشفى الزرازير خرج الدكتور الى البوابة ليودع صديقه مدير البريد . وفى تلك اللحظة دلـــف اليهودى مويسيكا الى الفناء عائدا من جولته . كان بلا غطاء راس ، وفى نعل خفيف بدون جورب ، ويحمل فى يديه كيسا صغيرا به الصدقات .

وقال للطبيب وهو يرتعد من البرد ويبتسم :

— اعطنى كوبيكا !

واعطاه اندريه يفيميتش الذى لم يكن يستطيع ابدا ان يرفض ، عشرة كوبيكات .

وفكر وهو ينظر الى قدميه العاريتين برسغيها الاحمريـــن النحيلين : «ياله من شيء سيىء . ان الارض رطبة» .

وبدافع هذا الاحساس الذى يشبه الشفقة والتقزز مضى الى الجناح فى اثر اليهودى ، وهو ينظر تارة الى صلعته ، وتارة الى رسغيه . وعند دخول الطبيب هب نيكيتا واقفا من فوق كومـــة النفايات وشد قامته .

وقال اندريه يفيميتش برفق :

- مرحبا ، يا نيكيتا . هل يمكن ان تصرف لهذا اليهـــودى حذاء ، يعنى ، والا اصيب بالبرد .

- حاضر ، يا صاحب السعادة . سأبلغ المشرف .

- من فضلك . اطلب منه باسمى . قل له اننى طلبت ذلك .

كان الباب المفضى من المدخل الى العنبر مفتوحا . واصغى ايفان دميتريتش ، الذى كان راقدا فى السرير وقد هم قليلا معتمدا على مرفقه الى الصوت الغريب بقلق ، وفجاة عرف فيه الدكتور . وارتجف بدنه كله من الغضب ، وقفز الى وسط العنبر بوجه محتقن ساخط وعينين جاحظتين .

وصاح :

- الدكتور وصل ! - ثم قهقه - اخيرا وصل ! ايها السادة اهنئكم ، لقد شرفكم الدكتور بزيارته - وصرخ بلوعة لم يسبـــق لاحد فى العنبر ان رأى مثلها - الوغد الملعون ! - ودق بقدمـه - فلنقتل هذا الوغد ! كلا ، القتل قليل عليه ! فلنغرقه فى المرحاض !

واطل اندريه يفيميتش ، الذى سمع هذا ، من المدخـــل الى العنبر وسأل برفق :

- ولماذا ؟

فصاح ايفان ديمتريتش مقبلا عليه بوجه متوعد وهو يلتـف بالرداء فى عصبية :

- لماذا ؟ لماذا ؟ - وقال بتقزز وهو يحرك شفتيه وكأنـــه يريد ان يبصق - لانك لص ! محتال ! جلاد !

فقال اندريه يفيميتش وهو يبتسم بذنب :

- هدىء نفسك . اؤكد لك اننى لم اسرق شيئا ابدا ، وفيما عدا ذلك اعتقد انك تبالغ جدا . انا ارى انك غاضب منى . هدىء نفسك ارجوك اذا كنت تستطيع وخبرنى بهدوء لماذا انت غاضـــب منى ؟

- ولماذا تبقينى هنا ؟

- لانك مريض .

- نعم مريض ، ولكن عشرات ومئات المجانين ينعمون بالحرية لان جهلك غير قادر على تمييزهم عن الاصحاء . فلماذا ينبغى على انا وهؤلاء التعساء ان نبقى هنا بدلا من الجميع ككباش الفداء ؟ انت

والحكيم والمشرف وكل اوغادكم فى المستشفى ادنى من اى واحد منا من الناحية الاخلاقية بما لا يقاس ، فلماذا نبقى هنا وانتم لا ؟ اين المنطق ؟

- لا دخل للناحية الاخلاقية والمنطق هنا . كل شىء متوقف على الصدفة . من وضعوه هنا فسيبقى ، ومن لم يضعوه ينعم بالحرية ، وهذا كل ما فى الامر . ليس هناك اى اخلاقية او منطق فى كونى دكتورا وانت مريض نفسى ، بل مجرد صدفة فارغة .

فقال ايفان دميتريتش بصوت مكتوم :

- انا لا اقبل هذا الهراء .

وجلس على سريره .

اما مويسيكا الذى استحى نيكيتا من تفتيشه فى حضرة الدكتور فقد وضع على سريره كسر الخبز والاوراق والعظام التى جمعها ، وقال بالعبرية شيئا ما بسرعة وبصورة منغمة . يبدو انه تخيل انه قد فتح دكانا .

وقال ايفان دميتريتش بصوت متهدج :

- اطلق سراحى .

- لا استطيع .

- لماذا اذن ؟ لماذا ؟

- لان هذا ليس فى سلطتى . ثم احكم بنفسك ، ما الفائدة التى تجنيها اذا اطلقت سراحك ؟ اذهب . . سيمسك بك اهل المدينة او الشرطة ويعيدونك الى هنا .

فقال ايفان دميتريتش ومسح جبينه :

- نعم ، هذا صحيح . . . شىء فظيع ! ولكن ماذا افعل ؟ ما العمل ؟

اعجب صوت ايفان دميتريتش ووجهه الشاب الذكى ذو التقلصات اندريه يفيميتش . وشعر برغبة فى الترويح عن هذا الشاب وتهدئته فجلس بجواره على الفراش ، وفكر ثم قال :

- انت تسال ما العمل ؟ ان افضل شىء فى وضعك هذا ان تهرب من هنا . ولكن ذلك غير مجد للاسف . فسوف يمسكون بك . عندما يحمى المجتمع نفسه من المجرمين والمرضى النفسيين وعموما من الاشخاص المتعبين ، فانه لا يمكن التغلب عليه ، ولا يبقى لك

غير شيء واحد : ان تهدىء نفسك بفكرة ان وجودك هنا ضرورى .
- لا احد بحاجة اليه .
- طالما توجد السجون ودور المجاذيب فلا بد ان يبقى فيهـا احد . ان لم تكن انت فانا ، ان لم اكن انا فغيرنا . انتظر الى ان ينتهى فى المستقبل البعيد وجود السجون ودور المجاذيب ، وعندئذ لن تكون هناك قضبان على النوافذ او ارواب . بالطبع سيأتى هذا العهد ان عاجلا ام آجلا .
فابتسم ايفان دميتريتش بسخرية ، وقال وهو يزر عينيه :
- انت تمزح . ان السادة امثالك وامثال مساعدك نيكيتـا لا يهمهم المستقبل فى شيء ، ولكن ثق يا سيدى الكريم انه سيأتى زمان افضل ! ولتكن كلماتى مبتذلة ، فلتضحك منها ، ولكن فجر الحياة الجديد سيهل ، وسينتصر الحق وسيحل العيد فى شارعنا ! لن اعيش الى ذلك اليوم ، سأنفق ، ولكن احفاد اشخاص غيـرى سيعيشون . اننى احييهم من كل قلبى واسعد ، اسعـد لهم ! الى الامام ! فليرعاكم الله يا اصدقائى !
ونهض ايفان دميتريتش وعيناه تلمعان ، ومد يديه نحـو النافذة ، ومضى يقول بصوت منفعل :
- اننى اباركم من وراء هذه القضبان ! يحى الحق ! اننـى اسعد !
فقال اندريه يفيميتش الذى بدت له حركات ايفان دميتريتش مسرحية ، ولكنها اعجبته جدا فى الوقت نفسه :
- انا لا ارى اى مبرر للسعادة . نعم ، لن تكون هناك سجون ودور مجاذيب ، والحق كما تفضلتم بالقول سوف ينتصر ، ولكن جوهر الامور لن يتغير ، وستبقى قوانين الطبيعة كما هى . سيظل الناس يمرضون ويهرمون ويموتون كما هو الآن . ومهما كانت روعة الفجر الذى سيضيء حياتك فسوف يضعونك فى النهاية فى تابوت ويلقون بك فى الحفرة .
- والخلود ؟
- اه ، دعك من هذا !
- انك لا تؤمن ولكنى اومن . لقد قـال شخص ما عنـد دوستويفسكى او فولتير انه لو لم يكن هناك اله لاخترعه الناس .

اما انا فاومن ايمانا عميقا بانه اذا لم يكن هناك خلود فان العقل البشرى العظيم سوف يخترعه ان عاجلا ام آجلا .

فقال اندريه يفيميتش وهو يبتسم مستمتعا :

– احسنت القول . حسن انك تؤمن . بهذا الايمان يمكن ان تعيش فى هناء حتى لو كنت مدفونا فى جدار . هل حصلت على تعليم فى مكان ما ؟

– نعم ، كنت فى الجامعة ، ولكنى لم اكمل تعليمى .

– انت انسان مفكر ورزين . وتستطيع فى اى وضع ان تجد السكينة فى نفسك . ان التفكير الحر العميق الذى يسعى الى فهم الحياة ، والاحتقار التام لاباطيل الدنيا الحمقاء هما النعمتان اللتان لم يعرف الانسان شيئا اسمى منهما . وبوسعك ان تحوزهما حتى لو كنت تعيش وراء ثلاث طبقات من القضبان . لقد عاش ديوجين فى برميل لكنه كان اسعد من كل قياصرة العالم .

فقال ايفان دميتريتش متجهما :

– ديوجينك هذا كان احمق . لماذا تحدثنى عن ديوجين وعن فهم الحياة ؟ – قال فجأة بغضب وقفز واقفا – اننى احب الحياة ، احبها بشوق ! وعندى عقدة الاضطهاد ، خوف مستمر معذب ، ولكن تمر بى لحظات ينتابنى فيها ظمأ للحياة ، وعندها اخشى ان اجن . كم اود ان اعيش ، اوه كم اود !

وتمشى فى العنبر بانفعال ، وقال وقد خفض صوته :

– عندما احلم تزورنى الاشباح . يأتينى اناس ما ، واسمع اصواتا وموسيقى ، ويخيل الى اننى اتريض فى غابات ما او على شاطىء البحر ، ويجتاحنى شوق جارف الى الزحام والمشاغل . . . – وسأل ايفان دميتريتش – خبرنى ماذا هناك من جديد ؟ ماذا هناك ؟

– اتريد ان تعرف اخبار المدينة ام بشكل عام ؟

– حسنا ، حدثنى فى البداية عن المدينة ، وبعد ذلك بشكل عام .

– حسنا . الحياة فى المدينة مملة الى حد العذاب . . . لا تجد من تتبادل معه كلمة ولا من تسمعه . ليس هناك اشخاص جدد . ولكن جاءنا منذ فترة قريبة الطبيب الشاب خوبوتوف .

- لقد جاء عندما كنت هناك . ماذا ، اهو وقح ؟
- نعم ، شخص غير مهذب . شىء غريب اتدرى . . . الدلائل كلها تشير الى انه ليس هناك ركود ذهنى فى عواصمنـــا ، واذن فينبغى ان يكون هناك اناس حقيقيون ، ولكن لسبب ما يرسلون الينا كل مرة من هناك اناسا تود الا تراهم . يا لها من مدينـــة تعيسة !

فتنهد ايفان دميتريتش وضحك قائلا :

- نعم ، مدينة تعيسة ! وكيف الحال بشكل عام ؟ عم تكتـــب الصحف والمجلات ؟

كان الظلام قد خيم على العنبر . ونهض الدكتور وراح يتحدث واقفا عما يكتب فى الخارج وفى روسيا وعن الاتجاه الفكرى الملاحظ الآن . واصغى ايفان دميتريتش بانتباه ووجه اليه بعض الاسئلة ، ولكنه امسك برأسه فجأة وكأنه تذكر شيئا فظيعا ، وتمدد فى السرير موليا ظهره للدكتور .

وسأل اندريه يفيميتش :

- ماذا بك ؟

فقال ايفان دميتريتش بغلظة :

- لن تسمع منى بعد كلمة واحدة . دعنى !
- لماذا ؟
- اقول لك دعنى ! ما لك بى ؟

فهز اندريه يفيميتش كتفيه وتنهد ثم خرج . وقال وهو يجتاز المدخل :

- لو امكن تنظيف المكان يا نيكيتا . . . الرائحة هنا فظيعة !
- حاضر ، يا صاحب السعادة .

وفكر اندريه يفيميتش فى طريق عودته الى الشقة : «يا له من شاب لطيف ! طول فترة وجودى هنا يبدو انه اول انسان يمكن ان تتحدث معه . انه يجيد النقاش ويهتم بما ينبغى الاهتمام به» .

وبينما كان يقرأ ، ثم وهو ياوى للفراش بعد ذلك ظل يفكر طوال الوقت فى ايفان دميتريتش ، وعندما استيقظ فى صباح اليوم التالى ، تذكر انه تعرف بالامس على شخص ذكى ممتع ، فقرر ان يزوره مرة اخرى فى اول فرصة ممكنة .

كان ايفان دميتريتش راقدا فى نفس الوضع الذى كان عليه بالامس ، وقد طوق رأسه بذراعيه وثنى ساقيه . ولم يكن وجهه ظاهرا .

وقال اندريه يفيميتش :

– مرحبا ، يا صديقى ! ألست نائما ؟

فقال ايفان دميتريتش فى الوسادة :

– اولا انا لست صديقك . وثانيا عبثا تتعب نفسك : لـــن تحصل منى على كلمة واحدة .

فدمدم اندريه يفيميتش فى ارتباك :

– غريبة . . . بالامس تحدثنا فى سلام ، ولكنك غضبت فجأة لسبب ما وقطعت الحديث . . . ربما اكون قد اسأت التعبير ، او ربما اكون قد اعربت عن فكرة لا تتفق مع معتقداتك . . .

– اتظن اننى اصدقك هكذا ببساطة ! – قال ايفان دميتريتش وهو ينهض ويتطلع الى الدكتور بسخرية وقلق . وكانت عينـــاه حمراوين – بوسعك ان تتجسس وتستطلع فى مكان آخر ، اما هنا فليس لديك ما تفعله . لقد ادركت بالامس سبب مجيئك .

وضحك الدكتور وقال :

– يا له من خيال غريب ! اذن فانت تعتقد اننى جاسوس ؟

– نعم اعتقد . . . جاسوس ام دكتور وضعونى عنده للاختبار ، الامر سيان .

– اه يا لك من . . . . عفوا . . . غريب الاطوار !

وجلس الدكتور على مقعد خشبى بجوار السرير وهز راســـه مؤنبا ، وقال :

– حسنا ، لنفرض انك على حق . لنفرض اننى احاول غـدرا ان اوقع بك لتسليمك للشرطة . سيقبضون عليك ويحاكمونـــك بعد ذلك . ولكن هل سيكون وضعك فى المحكمة وفى السجن اسوا من هنا ؟ ولو نفوك او حتى حكموا عليك بالاشغال الشاقة ، فهل سيكون ذلك اسوأ من بقائك هنا فى هذا الجناح ؟ اعتقد انه ليس اسوا . . . فمم تخاف اذن ؟

ويبدو ان هذه الكلمات اثرت على ايفان دميتريتش ، فجلس بهدوء .

كانت الساعة الخامسة مساء ، وهو الوقت الذى يتجول فيه اندريه يفيميتش عادة فى غرف شقته بينما تسأله داريوشكا عما إذا كان الوقت قد حان لتقديم البيرة . وكان الجو فى الخارج هادئا وصحوا .

وقال الدكتور :

– خرجت بعد الغداء لاتمشى ، وعرجت عليك كما ترى . الربيع قد حل تماما .

فسأل ايفان دميتريتش :

– فى اى شهر نحن الآن ؟ مارس ؟

– نعم ، نهاية مارس .

– الارض قذرة فى الخارج ؟

– كلا ، ليس الى هذا الحد . الحديقة بها دروب الآن .

فقال ايفان دميتريتش وهو يفرك عينيه كأنما استيقظ لتوه :

– ما اجمل ان تركب الآن عربة وتتجول فى المدينة ، ثم تعود الى البيت ، الى غرفة مكتب دافئة ومريحة و . . . تتعالج لدى طبيب جيد من الصداع . . . منذ فترة طويلة لم اعش عيشة انسانية . اما هنا فالحال مقزز ! مقزز بصورة لا تحتمل !

كان متعبا وخائر القوى بعد ثورة الامس ، وغير راغب فى الكلام . وكانت اصابعه ترتعش ، وبدا واضحا على وجهه انه يعانى من صداع شديد .

فقال اندريه يفيميتش :

– ليس هناك اى فرق بين غرفة المكتب الدافئة المريحة وهذا العنبر . ان سكينة الانسان ورضاه ليست خارجه ، بل فى داخله .

– ماذا تقصد ؟

– الانسان العادى ينتظر الامور الطيبة او السيئة من الخارج ، اى من العربة وغرفة المكتب ، اما الانسان المفكر فينتظرها من داخل نفسه .

– اذهب وبشر بهذه الفلسفة فى اليونان ، حيث الجو دافىء

وتفوح منه رائحة الفارنج اما هنا فهى لا تلائم الجو . مع من تحدثت عن ديوجين ؟ اظن معك ؟

– نعم ، معى بالامس .

– لم يكن ديوجين بحاجة الى غرفة مكتب وبيت دافىء ، فالجو هناك حار . فلتجلس فى البرميل ، وكل برتقالا وزيتونا . اما لو قدر له ان يعيش فى روسيا للجأ الى الغرفة لا فى ديسمبر بل فى مايو . ولتجمدت اطرافه من البرد .

– كلا . البرد ، مثله عموما مثل اى الم ، يمكنك الا تحس به . لقد قال مارك : «ليس الالم سوى تصور حى عن الالـــم . فلتبذل مجهودا اراديا لكى تغير هذا التصور ، ولتطرحه عنك ، ولتكف عن الشكوى ، وسيختفى الالم» . وهذا حق . فالحكيم ، او ببساطة الشخص المفكر الحصيف يتميز بأنه يحتقر المعاناة . انه دائما راض ولا يدهشه شىء .

– اذن فانا ابله ، لانى اعانى ، وغير راض ، وتدهشنـــى الخسة البشرية .

– عبثا تقول ذلك . فلو انك امعنت التفكير لادركت مدى تفاهة كل تلك الاشياء الخارجية التى تقلقنا . ينبغى ان نسعى الى فهم الحياة ، ففيه النعمة الحقيقية .

وامتعض ايفان دميتريتش قائلا :

– فهم الحياة . . . الخارجى والداخلى . . . عفوا ، انا لا افهم هذا – ثم نهض وقال وهو ينظر الى الدكتور بغضب – انا لا اعرف سوى ان اللـــه خلقنـــى مـن دم دافئ واعصـــاب ، نعم ! والنسيج العضوى ، اذا كان قادرا عـــلى الحيـــاة ، ينبغـــى ان يستجيب لكل مؤثر وانا استجيب ! ارد على الالم بالصراخ والدموع ، وعلى الخسة بالسخط وعلى الدناءة بالتقزز . واعتقد ان ذلك هو ما يسمى بالحياة . وكلما كان الجسم ادنى مستوى ، قلت حساسيته وضعفت استجابتـــه للمؤثرات ، وكلما ارتفع مستواه ازدادت حساسيته للواقع . كيف لا تعرف هذا ؟ دكتور ولا يعرف هذه الامور التافهة ! لكى تحتقر المعاناة وتكون راضيـــا على الدوام ولا يدهشك شىء ينبغى ان تتردى الى هذا المستوى – واشار ايفـان دميتريتش الى الفلاح البدين الذى غطاه الشحم – او ان تحصن نفسك

بالالم الى درجة ان تفقد اى احساس به ، اى بعبارة اخرى ، ان تكف عن الحياة – ومضى ايفان دميتريتش يقول بعصبية – عفوا انا لست حكيما ولا فيلسوفا . ولا افقه شيئا فى ذلك . انا لست قادرا على المناقشة .

– بالعكس ، انت تناقش بشكل رائع .

– ان الرواقيين الذين تحاكيهم كانوا اناسا ممتازين ، ولكن تعاليمهم تحجرت منذ الفى سنة ، ولم تتقدم خطوة واحدة الى الامام ، ولن تتقدم ، لانها ليست عملية ولا حيوية . ولم تلق رواجا سوى لدى الاقلية التى تنفق حياتها فى حفظ ولوك مختلف التعاليم ، اما الاغلبية فلم تفهمها . ان التعاليم التى تدعو الى تجاهل الثروة وملذات الحياة ، واحتقار الآلام والموت ليست مفهومة ابدا للغالبية الساحقة ، لان هذه الغالبية لم تعرف قط لا الثروة ولا ملذات الحياة . اما احتقار الآلام فيعنى بالنسبة لها احتقار الحياة نفسها ، لان جوهر الانسان كله يقوم على احاسيس الجوع والبرد والاهانات والخسائر والخوف الهاملتى من الموت . والحياة كلها فى هذه الاحاسيس . يمكنك ان تشقى بالحياة ، وتمقتها ، ولكن لا تحتقرها . نعم ، هكذا ، اكرر ، ان تعاليم الرواقيين لن يكون لها مستقبل ابدا ، اما التقدم فهو كما نرى ، منذ مطلع القرن حتى اليوم ، من نصيب الصراع ، ورهافة الاحساس بالالم ، والقدرة على الاستجابة للمؤثرات . . .

وفجأة فقد ايفان دميتريتش حبل افكاره فتوقف ، وفرك جبينه بأسى ، وقال :

– اردت ان اقول شيئا هاما ، ولكنى شردت . عم كنت اتحدث ؟ آه ، نعم ! اننى اقول اذن ان واحدا من الرواقيين قد باع نفسه واصبح عبدا لكى يحرر احد الاقربين . ارايت ، ها هو رواقى قد استجاب للمؤثر ، لان مثل هذا العمل الشهم ، وهو ان تقضى على نفسك من اجل شخص قريب ، يتطلب روحا مغضبة عطوفا . لقد نسيت هنا فى السجن كل ما درسته ، والا لتذكرت امثلة اخرى . وخذ عندك المسيح . لقد كان يستجيب للواقع بان يبكى ويبتسم ويحزن ويغضب ، بل كان يستوحش . . ولم يمض

للقاء الآلام بابتسامة ولم يحتقر الموت ، بل صلى فى حديقة لله لكى يعبر عنه هذى الكأس .

وضحك ايفان دميتريتش ثم جلس . وقال :

– لنفرض ان سكينة الانسان ورضاه ليسا خارجه بل فى داخله ، ولنفرض انه ينبغى احتقار الآلام وعدم الاندهاش لشىء . ولكن ، على اى اساس تدعو انت لذلك ؟ هل انت حكيـــم ؟ فيلسوف ؟

– كلا ، لست فيلسوفا ، ولكن كل انسان ينبغى ان يدعو لذلك لانه صواب .

– لا ، بل خبرنى لماذا تعتبر نفسك خبيرا فى مسألة فهم الحياة واحتقار الآلام وما الى ذلك ؟ هل تألمت فى حياتك ؟ هل تفهم ما هى الآلام ؟ اسمح لى : هل ضربت فى طفولتك ؟

– كلا ، كان والدى ينفران من العقاب الجسدى .

– اما انا فكان ابى يضربنى بقسوة ، كان ابى موظفا حاد الطبع ، مصابا بالبواسير ، ذا انف كبير ورقبة صفراء . ولكن دعنا نتحدث عنك . طوال حياتك كلها لم يمسسك احد باصبعه ، ولم يرهبك احد او يقهرك . وانت صحيح كالثور . وقد تربيت فى كنف ابيك وتعلمت على حسابه ، وبعد ذلك حصلت فورا على وظيفة مريحة وعشت اكثر من عشرين سنة بالمجان فى شقـــة بالتدفئة والنور والخدم وتملك الحق فى ان تعمل بقدر ما تريد وكيفما تريد ، حتى لو لم تعمل شيئا . وانت بطبيعتك شخص كسول ، رخو ، ولذلك سعيت الى تدبير حياتك بحيث لا يزعجك شىء ولا يحركك من مكانك . وقد سلمت الامور للحكيم وبقيـــة الاوغاد . بينما جلست فى الدفء والسكون ، تدخر النقود وتطالع الكتب وتمتع نفسك بالتفكير فى مختلف الوان الهراء السامى (ثم نظر ايفان دميترويتش الى انف الدكتور الاحمـــر) وبالشراب . وباختصار انت لم تر الحياة ولا تعرفها على الاطـــلاق ، ولست مطلعا على الواقع الا من الجانب النظرى . وانت تحتقر الآلام ولا يدهشك شىء لسبب بسيط للغاية ، فالقول : هذا باطل الاباطيل ، والاحتقار الداخلى والخارجى للحياة وللآلام وللموت ، وفهم الحياة ، والنعمة الحقيقية . . . كل ذلك هو انسب فلسفة للتنبل الروسى .

انت مثلا ترى فلاحا يضرب زوجته ، فلماذا تتدخل ؟ دعه يضربها ، فكلاهما على اى حال سيموتان عاجلا ام آجلا . زد على ذلك ان الضارب لا يهين بضربه الشخص المضروب بل نفسه . والسكر عمل احمق ، غير لائق ، ولكن سواء شربت ام لم تشرب فسوف تموت . وتاتى اليك امراة تشكو الما فى اسنانها . . . وماذا فى ذلك ؟ الالم ليس الا تصورا عن الالم ، وعلاوة على ذلك لا يمكنك ان تعيش فى هذه الدنيا دون امراض ، وكلنا سنموت ، ولذلك انصرفى ايتها المرأة ، لا تعطلينى عن التفكير وشرب الفودكا . ويسالك النصح شاب فيما ينبغى عليه ان يفعل وكيف يعيش . ولو سأل شخصا آخر لفكر قبل ان يجيب ، اما هنا فالجواب حاضر : اسع لفهم الحياة او للنعمة الحقيقية . ولكن ما هى هذه «النعمة الحقيقية» الخيالية ؟ بالطبع ليس هناك جواب . ويحتفظون بنا هنا وراء القضبان لنتعفن ويعذبوننا ، ولكن ذلك رائع ومعقول لانه ليس هناك اى فرق بين هذا العنبر وغرفة المكتب الدافئة المريحة . هذه فلسفة مريحة : لا تفعل شيئا بينما ضميرك مستريح وتحس بنفسك حكيما . . . كلا يا سيدى ، هذه ليست فلسفة ، وليس تفكيرا ، ولا سعة افق ، بل كسل ، وزهد واضغاث احلام . . . نعم ! – وعاود الغضب ايفان دميتريتش من جديد – انك تحتقر الآلام ، ولكن لو ان اصبعك انحشرت فى الباب فلربما صرخت باعلى صوتك !

فقال اندريه يفيميتش وهو يبتسم بوداعة :

– وربما لا اصرخ .

– كيف لا ! اما لو اصابك الشلل ، او لنفرض ان احد الحمقى الرقعين اهانك علنا مستغلا مركزه ورتبته وانت تعرف انه لن يعاقب على ذلك ، لادركت عندئذ ما معنى ان ترسل الآخرين الى فهم الحياة والى النعمة الحقيقية .

فقال اندريه يفيميتش وهو يضحك من المتعة ويفرك يديه :

– هذا طريف . ان ما يذهلنى فيك هو قدرتك على التعميم ، اما الصورة التى تفضلت من توك برسمها لشخصى فهى ، ببساطة ، باهرة . اصارحك بان الحديث معك يحمل لى متعة فائقة . حسنا ، لقد استمعت اليك ، فلتتكرم الآن بالاستماع الى . . .

استمر هذا الحديث حوالى ساعة اخرى ، وتـــــرك فى نفس اندريه يفيميتش ، على ما يبدو ، اثرا عميقا . واصبح يتردد على العنبر كل يوم . كان يأتى فى الصباح ، وبعد الغداء ، وكثيرا ما كانت ظلمة المساء تحل وهو يتحدث مع ايفان دميتريتش . وفى البداية كان ايفان دميتريتش ينفر منه ويرتاب فى سوء قصده ، ويعرب بصورة سافرة عن نفوره ، ولكنه تعود عليه فيما بعد ، وبدّل معاملته الحادة له الى نبرة متعالية ساخرة .

وسرعان ما سرت فى المستشفى شائعة بان الدكتور اندريـه يفيميتش اصبح يتردد على عنبر رقم ٦ . ولم يستطع احـد ، لا الحكيم ، ولا نيكيتا ، ولا المربيات ، ان يفهم السر وراء ذهابه الى هناك ، ولماذا يجلس الساعات الطوال يتحدث فى اشياء ما ، ولماذا لا يكتب روشتات . وبدت تصرفاته غريبة . وكثيرا ما كان ميخائيل افيريانيتش لا يجده فى البيت ، الامر الذى لم يحدث من قبل ابدا ، وكانت داريوشكا فى غايـــة الارتباك لان الدكتور لم يعد يشرب البيرة فى مواعيد محددة ، بل وكان احيانا يتأخر عن الغداء .

وذات مرة ، وكان ذلك فى اواخر يونيو ، ذهب الدكتــــور خوبوتوف الى اندريه يفيميتش فى امر ما . ولما لم يجده فى المنزل مضى ليبحث عنه فى الفناء . وهناك قيل له ان الدكتور العجـــوز ذهب الى المرضى النفسيين . ودلف خوبوتوف الى الجناح وتوقف فى المدخل فسمع الحديث التالى :

– لن نتفق ابدا ، ولن تستطيع ان تحولنى الى دينك – قال ايفان دميتريتش بعصبية – انت لا تعرف الواقع مطلقا ، ولم تتألم قط ، بل كنت كالعلقة تعيش على آلام الآخرين . اما انا فتألمت باستمرار ، من مولدى حتى يومنا هذا . لذلك اقول لك بصراحة : اننى اعتبر نفسى اعلى منك واكثر خبرة من جميع النواحى . لست انت من يعلمنى .

فقال اندريه يفيميتش بصوت خافت وبأسى لعدم الرغبة فى فهمه :

– انا لا اسعى ابدا الى تحويلك الى دينى . وليست تلك هى

المسألة يا صديقى . ليست المسألة انك تألمت وانا لم اتألم . فالآلام والافراح اشياء زائلة ، دعنا منها ، لها الله . ولكن المسألة اننا ، انا وانت ، نفكر . نحن نرى فى بعضنا اناسا قادرين على التفكير والمناقشة ، وهذا ما يجعلنا متضامنين مهما كانت اراؤنا مختلفة . آه ، لو تدرى يا صديقى كم مللت الجنون العام وانعدام المواهب والغباء ، وكم اسعد فى كل مرة بالحديث معك ! انت رجل ذكى وانا استمتع بك .

وفتح خوبوتوف الباب قليلا واطل برأسه فى العنبر . كان ايفان دميتريتش بطرطوره والدكتور اندريه يفيميتش جالسين على السرير متجاورين . وكان المجنون يقلص وجهه وينتفض ويلف نفسه فى الروب بعصبية ، بينما جلس الدكتور بلا حراك وقد نكس رأسه ، ووجهه محتقن عاجز حزين . وهز خوبوتوف كتفيه وضحك بسخرية ، وتبادل النظرات مع نيكيتا ، فهز هذا ايضا كتفيه .

وفى اليوم التالى جاء خوبوتوف الى الجناح مع الحكيم . ووقفا كلاهما فى المدخل يسترقان السمع .

وقال خوبوتوف وهما يغادران الجناح :

– يبدو ان شيخنا خرف تماما !

فتنهد سرجى سرجيتش الجليل وهو يتحاشى البرك الصغيرة بعناية حتى لا يلوث حذاءه النظيف اللامع :

– رحماك يا ربى ، اغفر لنا ذنوبنا ! اصارحك يا يفجينى فيودوروفيتش المحترم اننى كنت اتوقع ذلك من زمان !

١٢

اصبح اندريه يفيميتش بعد ذلك يلاحظ من حوله جوا من الغموض والاسرار . فعندما كان خدم المستشفى والمربيات والمرضى يقابلونه ، كانوا يتطلعون اليه بتساؤل ثم يتهامسون . اما الطفلة ماشا ، ابنة المشرف ، والتى كان يحب لقاءها فى حديقة المستشفى ، فقد اصبحت الآن لسبب ما تهرب منه عندما يقترب منها مبتسما لكى يمسد شعرها . ولم يعد مدير البريد ميخائيل

افيريانيتش وهو يصغى اليه يقول «صحيح تماما» بل كان يدمدم بارتباك غير مفهوم : «نعم ، نعم ، نعم . . .» ويتطلع اليه بتفكير واسى . ولسبب ما راح ينصح صديقه ان يهجر الفودكا والبيرة ، ولكنه ، كشخص مهذب ، لم يكن يقول ذلك مباشرة ، بل ملمحا ، وهو يحدثه تارة عن قائد كتيبة ، رجل ممتاز ، وتارة عن قسيس فوج ، وهو شاب رائع ، كانا يقبلان على الشراب فمرضا ، ولكنهما شفيا تماما بعد ان تركا الشرب . وجاء الى اندريه يفيميتش زميله الدكتور خوبوتوف مرتين او ثلاث مرات ، ونصحه هو ايضا ان يترك عنه المشروبات الكحولية ، وبدون اى مبرر واضح اوصاه بتناول البوتاسيوم مع البروم .

وفى اغسطس تلقى اندريه يفيميتش من رئيس المدينة رسالة يرجوه فيها الحضور لامر هام للغاية . وعندما وصل اندريه يفيميتش فى الوقت المحدد الى مبنى الادارة وجد هناك قائد الحامية ، والمشرف على مدرسة المركز ، وعضو مجلس الادارة ، وخوبوتوف وسيدا بدينا اشقر ، قدموه اليه على انه دكتور . وكان هذا الدكتور ، الذى يحمل كنية بولندية صعبة النطق يعيش على بعد ثلاثين فرسخا من المدينة ، فى مزرعة لتربية الخيول ، وكان الان مارا فى طريقه بالمدينة .

وقال عضو مجلس الادارة مخاطبا اندريه يفيميتش بعد سلّم الجميع وجلسوا الى الطاولة :

– هنا طلب يخصك . يقال يا يفجينى فيودورفيتش ان مكان الصيدلية فى المبنى الرئيسى ضيق ، وينبغى نقلها الى احد الاجنحة وهذا طبعا امر ممكن ، ولكن السبب الرئيسى ان الجناح سيحتاج الى تصليح .

فقال اندريه يفيميتش بعد تفكير قصير :

– نعم ، الامر لن يخلو من التصليح . فاذا اخذنا الجناح الركنى للاجزخانة ، فاعتقد ان ذلك سيحتاج الى خمسمائة روبل minimum * . نفقات غير منتجة .

وصمتوا قليلا .

---

* على الاقل (باللاتينية فى الاصل) . المعرب .

واستطرد اندريه يفيميتش بصوت خافت :

– لقد تشرفت منذ عشر سنوات برفع تقرير ، بان المستشفى بحالته الراهنة يعتبر بالنسبة للمدينة ترفا اكبر من امكانياتها . وقد شيد فى الاربعينات ، ولكن الاموال كانت آنذاك غيرهـا الآن . ان المدينة تنفق اكثر من اللازم على المبانى غير الضرورية والوظائف الزائدة . واعتقد انه بهذه الاموال يمكن ، فى ظل نظم اخرى ، الانفاق على مستشفيين نموذجيين .

فقال عضو مجلس الادارة بحيوية :

– اذن هيا رتب نظما اخرى .

– لقد تشرفت برفع تقرير عن ذلك ، واقترحت وضع الناحية العلاجية تحت اشراف مجلس الاقليم .

فضحك الطبيب الاشقر وقال :

– نعم ، اعطوا مجلس الاقليم النقود وسوف يسرقها .

فامن عضو مجلس الادارة على قوله وضحك ايضا :

– هذا ما يحدث فعلا .

ونظر اندريه يفيميتش بتراخ واكتئاب الى الدكتور الاشقـر وقال :

– ينبغى ان نكون منصفين .

وصمتوا ثانية . وجئ بالشاى . ومد قائد الحامية يده عبر الطاولة ، وهو مرتبك لسبب ما ، ولمس يد اندريـه يفيميتش وقال :

– لقد نسيتنا تماما يا دكتور . وعموما فـانت راهب ؛ لا تلعب الورق ، ولا تهوى النساء . انك تشعر معنا بالملل .

وتحدث الجميع عن الملل الذى يشعر به ساكن هذه المدينة المحترم . فليس هناك مسرح او موسيقى ، وفى آخر حفلة رقص فى النادى كان هناك حوالى عشرين سيدة ومراقصان اثنان فقط . والشبان لا يرقصون ، بل يتزاحمون طوال الوقت قرب البوفيه او يلعبون الورق . وبدأ اندريه يفيميتش يتحدث ببطء وبصـوت خافت دون ان يتطلع الى احد عن الاسف ، والاسف العميق من ان اهالى المدينة يبددون طاقاتهم الحيوية وقلوبهم وعقولهم فى لعب الورق وتناقل الشائعات ولا يستطيعون ولا يريدون ان يقضوا

وقتهم فى الحديث الممتع والقراءة ، ولا يريدون استغلال المتع التى يوفرها العقل . العقل وحده هو الطريف والرائع ، اما غير ذلك فضحل ومنحط . واصغى خوبوتوف بانتباه الى زميله ثم سأله بغتة :

– فى اى يوم من الشهر نحن الآن يا اندريه يفيميتش ؟

وبعد ان سمع الاجابة ، اخذ هو والدكتور الاشقر يسألان اندريه يفيميتش بنبرة الممتحن الذى يشعر بعجزه : اى ايام الاسبوع اليوم ، وكم عدد ايام السنة ، وهل صحيح انه يوجد نبى رائع فى عنبر رقم ٦ .

ورد اندريه يفيميتش على السؤال الاخير متضرجا :

– نعم ، انه مريض ، ولكنه شاب طريف .

ولم يوجهوا اليه اية اسئلة اخرى .

وعندما كان يرتدى معطفه فى المدخل وضع قائد الحامية يده على كتفه وقال متنهدا :

– آن لنا نحن الشيوخ ان نستريح !

وعندما خرج اندريه يفيميتش من مبنى الادارة ادرك انها كانت لجنة معينة للكشف على قواه العقلية . وتذكر الاسئلة التى وجهوها اليه فتضرج وجهه ، ولسبب ما شعر الآن ، ولاول مرة فى حياته ، بالاسى المر على الطب .

وفكر وهو يتذكر كيف فحصه الاطباء لتوه : «يا الهى ، انهم منذ فترة قريبة جدا درسوا علم الامراض النفسية ، وادوا فيه الامتحانات ، فمن اين هذا الجهل المطبق ؟ انهم لا يعرفون شيئا عن علم الامراض النفسية !»

ولاول مرة فى حياته احس بالمهانة والغضب .

وفى مساء نفس اليوم زاره ميخائيل افيريانيتش . اقترب منه مدير البريد دون ان يحييه وامسك بكلتا يديه ، وقال بصوت منفعل :

– يا صديقى العزيز ، برهن لى انك تثق فى صدق شعورى نحوك وتعتبرنى صديقك . . . يا صديقى ! – ومضى يقول بانفعال دون ان يعطى فرصة لاندريه يفيميتش – اننى احبك لثقافتك ونبل روحك . فلتسمعنى يا عزيزى . ان قواعد العلم توجب على الاطباء

ان يخفوا عنك الحقيقة ، ولكنى ، كعسكرى اقول الحقيقــة دون مواربة : انت مريض ! اعذرنى يا عزيزى ، ولكنها حقيقة ، وقـد لاحظ ذلك كل مَنْ حولك منذ فترة طويلة . وقال لى الآن الدكتور يفجينى فيودوروفيتش انك بحاجة الى الراحة والترويح من اجل صحتك . صحيح تماما ! رائع ! بعد ايام سآخذ اجازة واسافـر لكى استنشق هواء آخر . اثبت لى انك صديق ، ولنسافر معا ! فلنرحل وننفض عنا الشيخوخة .

فقال اندريه يفيميتش بعد تفكير :

– انا اشعر بنفسى فى صحة تامة . ولا استطيع ان اسافر . ولتسمح لى ان اعرب لك بصورة اخرى عن صداقتى .

ان يسافر الى مكان ما ، ولغرض غير معروف ، بدون كتب ، بدون داريوشكا ، بدون البيرة ، ويغير تغييرا حادا نظام الحياة المستقر منذ عشرين سنة ، – هذه الفكرة بدت لاندريه يفيميتش للوهلة الاولى غريبة وخيالية . ولكنه تذكر الحديث الذى دار فى مبنى الادارة والمزاج المقبض الذى احس به وهو عائد من مبنى الادارة الى البيت ، فداعبته فكرة الرحيل لفترة قصيرة عن هذه المدينة التى يعتبره الاغبياء فيها مجنونا . وسأل :

– ولكن الى اين تنوى السفر ؟

– الى موسكو ، وبطرسبرج ، ووارسو . . . لقد قضيت فى وارسو خمس سنوات من اسعد سنوات عمرى . يا لها مـن مدينة مدهشة ! فلنسافر يا عزيزى !

١٣

بعد اسبوع عرضوا على اندريه يفيميتش ان يستريح ، اى ان يقدم استقالته ، فاستقبل ذلك بلا مبالاة ، وبعد اسبوع آخـر كان هو وميخائيل افيريانيتش جالسين فى عربــة بريد متوجهين الى اقرب محطة قطار . كانت الايام باردة صافية والسماء زرقاء والافق شفافا . وقطعا مسافة المائتى فرسخ التى تفصلهما عـن المحطة فى يومين ، وباتا ليلتين فى الطريق . وعندما كانوا يقدمون لهما فى محطات البريد اكوابا للشاى غير مغسولة جيدا او يتاخرون

فى تسريج الجياد ، كان ميخائيل افيريانيتش يحمـــر ، ويهتز بدنه كلــه ويصيح : «اخرس ! ممنـــوع الكلام !» وعندمـا يجلس فى العربـــة كان لا يكف دقيقـــة واحـــدة عن الحديث حول رحلاته الى القوقـــاز والمملكــــة البولنديـــة . كم خـــاض من مغامرات ، ويا للقـــاءات ! كان يتحـــدث بصوت عال وينظر بعينين مدهوشتين بحيث كان من الممكـــن الظن بانه يكذب . وعلاوة على ذلك فقد كان ، وهو يتحدث ، يزفر فى وجه اندريه يفيميتش ويقهقه فى اذنه . وكان هذا يضايـــق الدكتور ويعوقه عن التفكير والتركيز .

ومن باب التوفير سافرا فى الدرجة الثالثة فى القطـار ، فى عربة لغير المدخنين . وكان نصف الركاب نظيفين ، وسرعان ما تعرف ميخائيل افيريانيتش بالجميع ، وراح يتنقل من مقعد لآخر وهو يتحدث بصوت عال عن انه لا ينبغى السفر فى هذه الطرق المحنقة ، الجميع من حولك محتالون ! ولكن السفر على ظهر جواد شىء آخر . . . تقطع فى اليوم مائة فرسخ وبعدها تحس بـأنك صحيح ومنتعش . اما قلة المحاصيل لدينا فسببها تجفيف مستنقعات بينسك . وعموما فالفوضى رهيبة . كان يثور ويتحدث بصوت عال ولا يعطى للآخرين فرصة للكلام . وقد ارهقت هذه الثرثرة اللانهائية والمقترنة بالضحك العالى والحركات المعبرة اندريـــه يفيميتش .

وفكر بأسى : «اينا المجنون يا ترى ؟ انا ، الذى احاول الا اسبب اى ازعاج للركاب ، ام هذا الانانى الذى يعتقد انه اذكى واطرف الجميع هنا ، ولذلك يزعج الجميع ؟» .

وفى موسكو ارتدى ميخائيل افيريانيتش سترة عسكرية بدون شارات الرتبة وسروالا بشرائط حمراء . وكان يسير فى الشوارع فى عمرة عسكرية ومعطف فكان الجنود يؤدون له التحية العسكرية. وبدا لاندريه يفيميتش الآن انه شخص قد بدد من اصله النبيل الذى كان له فى وقت ما كل ما هو طيب ولم يبق لنفسه الا ما هو سيئ فقط . كان يحب ان يحتفى به حتى عندما لم يكن ثمة داع لذلك على الاطلاق . اذ يكون الكبريت موضوعا امامه على الطاولة ، وهو يراه ولكنه يصيح بالخادم لكى يقدم له كبريتا . ولم يكن

يخجل من السير امام عاملة الفندق بملابسه الداخلية ، وينادى جميع الخدم دون تفرقة حتى كبار السن منهم بـ «انت» * ، وعندما يغضب يدعوهم بالحمقى والبلهاء وخيل لاندريه يفيميتش ان ذلك كان من طباع السادة ، ولكنه شيء مقزز .

وقبل كل شيء قاد ميخائيل افيريانيتش صديقه الى كنيسة ايفير . وصلى بحرارة وهو يركع حتى الارض وعيناه تدمعان ، وعندما فرغ من الصلاة تنفس الصعداء وقال :

- عندما تصلى ، حتى لو لم تكن مؤمنا ، تشعر براحة اكثر . هيا قبّل يا عزيزى .

وارتبك اندريه يفيميتش وقبل الايقونة ، اما ميخائيل افيريانيتش فقد مط شفتيه واخذ يصلى هامسا وراسه يتمايل ، واغرورقت عيناه بالدموع ثانية . ثم توجها الى الكريملين وشاهدا هناك ملك المدافع وملك الاجراس بل وتحسساهما باصابعهما ، ومليا النظر من منظر ما وراء نهر موسكو ، وزارا معبد المخلص ومتحف روميانتسف .

وتناولا الغداء فى مطعم تيستوف . وحدق ميخائيل افيريانيتش طويلا فى قائمة الطعام وهو يمسد فوديه وقال بنبرة الذواقة الذى تعود ان يشعر بنفسه فى المطاعم وكانه فى بيته :

- فلنر ماذا ستطعمنا اليوم يا همام !

١٤

كان الدكتور يمشى ويتفرج وياكل ويشرب ، ولكنه لم يكن يحس الا بشيء واحد ، هو الاسى من ميخائيل افيريانيتش . وود لو يرتاح من صديقه ويبتعد عنه ويختفى ، ولكن الصديق اعتبر من واجبه الا يتركه يبتعد عنه خطوة ، وان يهيىء له اكبر ما يمكن من المتع . وعندما لم يكن هناك ما يشاهد ، كان يسليه بالاحاديث . وصبر اندريه يفيميتش على ذلك يومين ، وفى اليوم

* تقتضى تقاليد المخاطبة فى اللغة الروسية ان تخاطب الآخرين بصيغة الجمع «انتم» للاحترام . **المعرب** .

الثالث اخبر صديقه انه مريض ويريد ان يبقى فى البيت طـول اليوم . فقال الصديق انه فى هذه الحالة سيبقى هو ايضـا . وبالفعل ينبغى ان يستريح والا فلن تكفيه قدماه . ورقد اندريه يفيميتش على الكنبة ووجهه الى ظهرها ، وزم اسنانه وهو يصغى لصديقه الذى راح يؤكد له بحرارة ان فرنسا ستهزم المانيا حتما ان عاجلا ام آجلا ، وان فى موسكو كثيرا جدا من المحتالين ، وانه لا يمكن الحكم على فضائل الجياد من مظهرهـا الخارجى . وبدا اندريه يفيميتش يحس بطنين فى اذنيه وتسارع فى ضربات القلب ، ولكنه لم يجرؤ من باب اللياقة على ان يطلب من صديقه ان يتركه او يصمت . ولحسن الحظ مل ميخائيل افيريانيتش من البقاء فى الغرفة ، فانصرف بعد الغداء ليتنزه .

وعندما اصبح اندريه يفيميتش وحده استسلم للاحسـاس بالراحة . ما اجمل ان تستلقى على الكنبة بلا حراك وان تشعـر بانك وحيد فى الغرفة ! السعادة الحقيقية مستحيلة بدون الوحدة . والملاك الساقط خان الرب ربما لانه رغب فى الوحدة التـى لا يعرفها الملائكة . واراد اندريه يفيميتش ان يفكر فيما رآه وسمعه فى الايام الاخيرة ، ولكن ميخائيل افيريانيتش لم يفارق مخيلته .

وفكر الدكتور بأسى : «ولكنه اخذ اجازة وسافر معى بدافع الصداقة ، بدافع السماحة . ليس هناك ما هو اسوأ من الوصاية باسم الصداقة . انه يبدو لك طيبا ، وسمحا ، ومرحا ، ومع ذلك فهو ممل . ممل الى درجة لا تحتمل . وهكذا قد تجد اناسا لا يقولون الا كلمات ذكية جيدة ولكنك تحس بأنهم اناس بلداء» .

وفى الايام التالية كذلك ادعى اندريه يفيميتش المرض ولـم يغادر الغرفة . ظل راقدا ووجهه الى ظهر الكنبة ويعانى عندما يسليه صديقه بالاحاديث ، او يرتاح عندما يكون الصديق غائبا . وحنق على نفسه لانه سافر وعلى صديقه الذى كان يزداد ثرثرة وتبسطا يوما بعد يوم . ولم يستطع ابدا ان يوجه افكاره فى اتجاه جـاد سام .

وفكر وهو يشعر بالغضب من تفاهته : «انه الواقع يعصرنى ، الواقع الذى تحدث عنه ايفان دميتريتش . وعموما فهذا هراء . . عندما ارجع الى البيت سيسير كل شئ كما كان فى السابق . .» .

وفى بطرسبرج تكرر نفس الوضع . كان لا يغادر الغرفة اياما بكاملها وهو راقد على الكنبة ، ولا ينهض الا ليشرب البيرة .

وكان ميخائيل افيريانيتش طول الوقت يتعجل السفـــر الى وارسو .

فيقول اندريه يفيميتش بضراعة :

– يا عزيزى ، وما الداعى لذهابى انا ؟ سافر وحـــدك ، واسمح لى ان اعود الى البيت ! ارجوك !

فيحتج ميخائيل افيريانيتش :

– لا يمكن بأى حال ! انها مدينة رائعة . قضيت فيها خمس سنوات من اسعد سنوات عمرى .

لم يكن لدى اندريه يفيميتش من الارادة ما يكفى للاصرار على رأيه فسافر مكرها الى وارسو . وهناك لم يغادر الغرفة ، وظل راقدا على الكنبة ، وهو يحنق على نفسه وعلى صديقه ، وعلى الخدم الذين اصروا بعناد على عدم فهم الروسية . اما ميخائيل افيريانيتش بصحتـــه ونشاطه ومرحه كالعادة ، فكان يتجول فى المدينة من الصباح الى المساء ويبحث عن معارفه القدامى . ولم يبت فى الفندق عدة مرات . وبعد ليلة قضاها فى مكان غير معروف رجع الى الفندق فى الصباح الباكر وهو فى حالة انفعال شديد ، احمر الوجه ، مشعث الشعر . واخذ يروح فى الغرفة جيئة وذهابا فترة طويلة ، وهو يدمدم بكلمات ما ، ثم توقف وقال :

– الشرف قبل كل شىء !

ثم تمشى قليلا ، وامسك رأسه بيديه وقال بصوت تراجيدى :

– نعم ، الشرف قبل كل شىء ! اللعنة على تلك الساعة التى فكرت فيها ان آتى الى بابل هذه ! – والتفت الى الدكتور قائلا – يا عزيزى ، فلتحتقرنى ، لقد خسرت فى القمار ، اعطنى خمسمائة روبل .

عد اندريه يفيميتش خمسمائة روبل واعطاها لصديقـــه فى صمت . فتفوه هذا بقسم ما غير ضرورى ، وهو لا يزال محتقنا من الخجل والغضب ، وارتدى قبعتـــه وخرج . وعاد بعد حوالى ساعتين وتهالك فى المقعد وتنهد بصوت عال وقال :

– لقد انقذ الشرف ! فلنرحل يا صديقى ! لا اريد ان ابقى فى

هذه المدينة الملعونة دقيقـــة واحدة . المحتالون ! جواسيس النمسا !

عندما عاد الصديقان الى المدينة كان نوفمبر قد حل ، وغطى الشوارع ثلـــج كثير . وشغل الدكتور خوبوتوف محل اندريه يفيميتش ، وكان لا يزال يقطن الشقـــة القديمة فى انتظار رحيل اندريه يفيميتش عن شقة المستشفى . واصبحت المراة الدميمة التى كان يسميها طاهيته تقطن بالفعل فى احد اجنحة المستشفى .

وسرت فى المدينة شائعـات جديدة عن المستشفى . فقيل ان المراة الدميمة تشاجرت مع المشرف ، وان الاخير زحف امامها على ركبتيه طالبا الصفح .

واضطر اندريه يفيميتش فى اول يوم لوصولـــه الى البحث عن شقة .

وقال له مدير البريد بتردد :

– يا صديقى . . . اعذرنى على هذا السؤال غير المتواضع : كم لديك من المال ؟

فعد اندريه يفيميتش نقوده فى صمت وقال :

– ستة وثمانون روبلا .

فقال ميخائيل افيريانيتش فى حرج وهو لم يفهم الدكتور :

– لست اسأل عن هذا . اننى اسأل كم تملك عموما ؟

– لقد قلت لك : ستة وثمانون روبلا . . . ليس لدى اكثر من هذا .

كان ميخائيل افيريانيتش يعتبر الدكتور شخصا شريفا ونبيلا ، ولكنه مع ذلك كان يحدس بأن لديه رصيدا يبلغ على الاقل عشرين الفا . اما الآن ، وبعد ان عرف ان اندريه يفيميتش شحاذ وليس لديه ما يعيش به ، بكى فجأة لسبب ما وعانق صديقه .

١٥

سكن اندريه يفيميتش فى منزل المواطنة بيلوفـا ذى الثلاث نوافذ . ولم يكن فى هذا البيت سوى ثلاث غرف بخلاف المطبخ . وشغل الدكتور غرفتين منهما ، بنوافذ تطل على الشارع ، بينما

سكنت داريوشكا وربة البيت واطفالهـــا الثلاثة الغرفة الثالثة والمطبخ .

واحيانا كان عشيق ربة الدار يأتى للمبيت ، وهو فلاح ثمل ، كانت ثائرتـــه تثور فى الليل فيلقى الرعب فى قلوب الاطفـــال وداريوشكا . وعندما يأتى ويتربع فى المطبـخ ويبدأ فى المطالبة بالفودكا ، كان الجميع يشعرون بضيق المكـــان الشديد فيأخذ الدكتور الاطفال الباكين شفقة بهم ويرقدهم عنده على الارض ، وكان ذلك يجلب له متعة كبيرة .

كان يستيقظ فى الثامنة كسابق عهده ، وبعد تناول الشاى يجلس ليقرأ كتبه ومجلاته القديمة ، اذ لم يعد لديه نقود لشراء كتب جديدة . وربما لان الكتب قديمة ، او ربمـا بسبب تغيير المكان لم تعد القراءة تستغرقه بل كانت ترهقه . ولكى لا يبدد الوقت دون عمل ، وضع كتالوجا مفصلا لكتبه ، والصق بطاقات صغيرة بكعوبها ، وبدا له هذا العمل الميكانيكى الدقيق اطرف من القراءة . كان العمل الرتيب الدقيق يهدهد افكاره بصورة غير مفهومة ، فلا يفكر فى شىء ويمر الوقت بسرعة . وحتى الجلوس فى المطبخ مع داريوشكـــا لتقشير البطاطس او تنظيف البرغل من الشوائب بدا له طريفا . وكان يتردد على الكنيسة فى يومى السبت والاحد . كان يقف بجوار الحائط ويصغى الى الغناء مغمض العينين ويفكر فى ابيه ، وامه والجامعـة ، والاديان ، ويحس بالسكينة والحزن ، وعندمـا ينصرف بعد ذلك من الكنيسة يشعر بالاسف لانتهاء الصلاة بسرعة .

وزار ايفان دميتريتش فى المستشفى مرتين لكى يتحدث معه . ولكن ايفان دميتريتش فى كلتا المرتين كان هائجا ومحنقا بصورة غير عادية ، فطلب منه ان يدعه وشأنه لانه مل منذ فترة بعيدة هذه الثرثرة الفارغة ، وقال انه لا يرجو من الاوغاد الملاعين غير مكافأة واحدة على كل آلامه : الحبس الانفرادى ، فهل من المعقول ان يرفضوا حتى هذا الطلب ؟ وعندما ودعه اندريه يفيميتش فى المرتين متمنيا له ليلة هادئة ، قال بغل :

— الى الشيطان !

والآن لم يعد اندريه يفيميتش يعرف هل يزوره للمرة الثالثة ام لا . وكانت به رغبة فى الذهاب .

وفى السابق كان اندريه يفيميتش يقضى فترة ما بعد الغداء فى الطواف بالغرف والتفكير ، اما الآن فاصبح يرقد من الغداء حتى شاى العشاء على الكنبة ووجهه الى ظهرها ويستسلم لافكار ضحلة لم يستطع التغلب عليها ابدا . كان يحز فى نفسه انه مقابل خدمته التى جاوزت العشرين عاما لم يحصل لا على معاش ولا على مكافاة . صحيح انه خدم بغير امانة ، ولكن المعاش يحصل عليه جميع الموظفين بغير تمييز ، سواء كانوا امناء ام لا . والعدالة المعاصرة انما تتجلى فى ان الرتب والاوسمة والمعاشات لا تمنح مكافاة على الخصائص الخلقية والقدرات ، بل على العمل بشكل عام ، وايا كان . فلماذا ينبغى ان يكون هو وحده الاستثناء ؟ لم يكن لديه نقود على الاطلاق . وكان يشعر بالخجل من المرور امام الدكان والنظر الى ربة الدار . وكان مدينا باثنين وثلاثين روبلا مقابل البيرة . وداريوشكا تبيع شيئا فشيئا الملابس والكتب القديمة وتكذب على ربة الدار قائلة ان الدكتور سيحصل عما قريب على مبلغ ضخم .

وحنق على نفسه لانه انفق فى الرحلة الالف روبل التى كان قد ادخرها . . كم كانت تنفعه هذه الالف الآن ! وكان يشعر بالاسى لأن الناس لا تدعه وشأنه . فقد كان خوبوتوف يرى من واجبه ان يزور زميله المريض من حين لحين . كان كل ما فيه بغيضا على نفس اندريه يفيميتش : وجهه الشبعان ، ونبرته المتعالية السيئة ، وكلمة «زميل» وحذاؤه العالى . اما اكثر شىء بغضا فهو انه كان يرى من واجبه ان يعالج اندريه يفيميتش ، ويعتقد انه يعالجه بالفعل . وفى كل زيارة كان يأتى معه بقارورة من البوتاسيوم والبروم وحبوب الراوند .

وكان ميخائيل افيريانيتش ايضا يرى من واجبه ان يزور صديقه ويسرى عنه . كان يدخل على اندريه يفيميتش فى كل مرة فى تبسط مفتعل ، ويقهقه بتكلف ، ويروح يؤكد له ان هيئته اليوم تبدو رائعة ، وان الامور تسير والحمد لله نحو التحسن ، وكان يمكن ان تستنتج من ذلك انه يعتبر حالة صديقه ميئوسا



منها . ولم يرد بعد دين وارسو فكان مهموما من الخزى الشديد ، ومتوترا ، ولذلك يحاول ان يقهقه بصوت اعلى ويروى بصورة اكثر اضحاكا . وبدت مزحاته وحكاياته الآن بلا نهاية ، وكانت مضنية سواء لاندريه يفيميتش ام له هو نفسه .

وفى حضرته كان اندريه يفيميتش يتمدد عادة على الكنبة ووجهه الى الحائط ويستمع وقد اطبق اسنانه . وتترسب المرارة على قلبه طبقات ، وبعد كل مرة يزوره فيها صديقه يحس بان هذه الترسبات تصبح اعلى فأعلى وكأنما تقترب من حلقه .

ولكى يخمد هذه الاحاسيس التافهة كان يسارع الى التفكير فى انه هو نفسه ، وخوبوتوف وميخائيل افيريانيتش مصيرهم الى الزوال عاجلا ام آجلا ، دون ان يخلفوا فى الطبيعة حتى مجرد بصمة . ولو تخيلنا انه بعد مليون سنة حلقت روح ما فى الفضاء مارة بالكرة الارضية فلن ترى سوى الطين والصخور العارية . سيندثر كل شىء . . . ستندثر الثقافة والقانون الاخلاقى ، حتى دون ان يغطيها العشب . فماذا يعنى الخجل من صاحب الدكان ، وماذا يعنى خوبوتوف التافه ، والصداقة المرهقة مع ميخائيل افيريانيتش ؟ كل هذا هراء وتفاهة .

ولكن هذه الافكار لم تعد تسعفه . فما ان يتصور الكرة الارضية بعد مليون سنة ، حتى يطل خوبوتوف بحذائه العالى من وراء صخرة عارية او ميخائيل افيريانيتش وهو يقهقه بتوتر ، بل ويسمع همسا خجلا : «سأرد لك يا عزيزى دين وارسو فى الايام القادمة . . . حتما» .

١٦

جاء ميخائيل افيريانيتش ذات مرة بعد الغداء عندما كان اندريه يفيميتش راقدا على الكنبة . واتفق ان جاء فى نفس الوقت خوبوتوف ايضا حاملا البوتاسيوم بالبروم . ونهض اندريه يفيميتش بتثاقل وجلس معتمدا بكلتا يديه على الكنبة .

وبدأ ميخائيل افيريانيتش يقول :

— اما اليوم يا عزيزى فلون وجهك افضل بكثير من الامس ، نعم برافو عليك ! اى والله برافو !

وقال خوبوتوف متثائبا :

– حان الوقت للشفاء يا زميلى ، حان الوقت ! عساك سئمت هذا التسويف .

فقال ميخائيل افيريانيتش بمرح :

– سوف نشفى ! وسنعيش مائة عام اخرى ! نعم ، هكذا !

فقال خوبوتوف مواسيا :

– مائة ام لا ، لكن لديه ما يكفى لعشرين عاما اخرى . . . لا بأس ، لا بأس يا عزيزى ، لا تحمل هما . . . كفاك مراوغة !

وقهقه ميخائيل افيريانيتش وربت على ركبة صديقه قائلا :

– سوف نريكم من نحن ! سوف نريكم . فى الصيف القادم ان شاء الله نرحل الى القوقاز ونطوف به كله على ظهور الجياد هوب – هوب – هوب ! وبعد ان نعود من القوقاز ، من يدرى ، ربما نشهد حفل الزفاف – وغمز ميخائيل افيريانيتش بعينيه فى خبث – سنزوجك يا صديقى العزيز ، سنزوجك . . .

وفجأة احس اندريه يفيميتش ان المرارة تقترب من حلقه ، ودق قلبه بعنف .

فقال وهو ينهض بسرعة متجها الى النافذة :

– هذا ابتذال ! الا تدركان انكما تقولان اشياء مبتذلة ؟

واراد ان يستطرد بلطف واحترام ولكنه رغما عنه شد قبضتيه فجأة ورفعهما اعلى من رأسه وصاح بصوت غير صوته وهو يتضرج وجسده كله يرتعش :

– دعونى ! اخرجا من هنا ! انتما الاثنان اخرجا !

ونهض ميخائيل افيريانيتش وخوبوتوف وحدقا فيه فى البداية بدهشة ، ثم بخوف .

ومضى اندريه يفيميتش يصيح :

– اخرجا من هنا ! ايها البلداء ! ايها الاغبياء ! لست بحاجة الى الصداقة او الى ادويتك ايها البليد ! ياللابتذال ! يا للحقارة !

وتبادل ميخائيل افيريانيتش وخوبوتوف النظرات فى ارتباك وتراجعا الى الباب وخرجا الى المدخل . والتقط اندريه يفيميتش قارورة البوتاسيوم بالبروم وقذف بها فى اثرهما ، فتحطمت القارورة على العتبة برنين .

- اذهبا الى الشيطان ! صاح بصوت باك وهو يندفـــع الى المدخل - الى الشيطان !

وبعد خروج الضيفين ، استلقى اندريه يفيميتش على الكنبة وهو يرتعش كالمحموم ، وظل طويلا يردد :

- البلداء ! الاغبياء !

وعندما هدأت ثائرته كان اول ما تبادر الى ذهنه ان ميخائيل افيريانيتش المسكين لا بد يشعر الآن بالخجل الرهيب والكآبة ، وان كل هذا فظيع . لم يحدث له من قبل ابدا شيء مثل هذا ، فأين ذكاؤه ولباقته ؟ واين فهم الاشياء واللامبالاة الفلسفية ؟

لم يغمض للدكتور جفن طول الليل من الخجل والحنق على نفسه ، وفي الصباح ، حوالى الساعـــة العاشرة ، اتجه الى مكتب البريد واعتذر لمدير البريد .

فقال ميخائيل افيريانيتش وهو يتنهد متأثرا ويشد بقوة على يده :

- دعنا من ذكر الماضى . ما فـــات مات . يا لوبافكين ! - صاح فجأة بصوت عال انتفض له السعاة والزوار - هات مقعدا . اما انت فانتظرى - صاح فى امرأة كانت تمد له عبر النافــــذة رسالة مسجلة - الا ترين اننى مشغول ؟ - ومضى يقول بلطف مخاطبا اندريـــه يفيميتش - دعنـــا من ذكر الماضى . اجلس يا صديقى ، تفضل ارجوك .

وصمت دقيقة وهو يمسد ركبتيه ، ثم قال :

- لم يخطر ببالى ابدا ان اغضـــب منك . فالمرض يجلب الكرب . انا اعرف . لقد ازعجتنى انا والدكتور النوبة الى اصابتك بالامس ، وقد تحدثنا بعدها طويلا عنك . يا عزيزى ، لماذا لا تريد ان تهتم جديا بمرضـــك ؟ امن المعقول ان تبقى هكذا ؟ - وهمس ميخائيل افيريانيتش - اعذرنى على صراحتى الودية ، انك تعيش فى ظروف غير ملائمة ابدا : فى مكان ضيق ، غير نظيف ، وليس هناك من يرعاك ، وليس لديك ما تتعالج بـــه . . . يا صديقى العزيز ، اتوسل اليك انا والدكتور من صميم قلوبنا ، اقبل نصيحتنا وادخل المستشفى ! هنـــاك الطعـــام الصحى ، والرعايـــة ، والعلاج . ويعجبنى فيودوروفتش ، رغم انـــه

موفى‌تون * ، الا انه بينى وبينك ، رجل عليم ، يمكن الاعتماد عليه تماما . وقد وعدنى ان يهتم بك .

كان اندريه يفيميتش متأثرا بهذه المشاركة المخلصة وبالدموع التى لمعت فجأة على خدى مدير البريد .

فهمس وهو يضع يده على قلبه :

– يا صديقى المحترم ، لا تصدق ! لا تصدقهم ! هذا خداع! ما مرضى الا اننى خلال عشرين سنة لم اجد فى المدينة كلها سوى رجل ذكى واحد ، وفوق ذلك فهو مجنون . ليس بى اى مرض ، وانما ببساطة وقعت فى حلقة مفرغة لا مخرج منها . الامر عندى سيان ، انا مستعد لاى شىء .

– ادخل المستشفى يا عزيزى .

– سيان عندى ، ولو السجن .

– عدنى يا عزيزى بأنك سوف تطيع يفجينى فيودورفتش فى كل شىء .

– تفضل ، اعدك . ولكنى اكرر لك اننى وقعت فى حلقة مفرغة . وكل شىء الآن ، حتى المشاركة المخلصة من جانب اصدقائى ، تتجه نحو شىء واحد . . نحو هلاكى . اننى امضى الى الهلاك ، ولدى من الشجاعة ما ادرك به ذلك .

– ستشفى يا عزيزى .

فقال اندريه يفيميتش بعصبية :

– ما الداعى لهذا الكلام ؟ قليلون هم الذين لا يعانون فى اواخر ايامهم ما اعانيه الآن . فعندما يقال لك ان الكلى لديك سيئة وقلبك متضخم فتشرع فى العلاج ، او يقال لك انك مجنون او مجرم ، اى باختصار عندما يوجه الناس انتباههم اليك فجأة ، فلتعلم انك وقعت فى حلقة مفرغة لن تخرج منها ابدا . واذا ما حاولت ان تخرج ستضل اكثر . فلتستسلم ، لانه لن تنقذك اية جهود بشرية . هكذا يبدو لى .

وفى تلك الاثناء تجمع الجمهور بجوار النافذة ، فنهض اندريه يفيميتش مودعا لكى لا يعرقل العمل واخذ منه ميخائيل افيريانيتش مرة اخرى كلمة شرف ، وصاحبه حتى الباب الخارجى .

* قليل الذوق (بالفرنسية) .

وفى نفس اليوم قبيل المساء جاء خوبوتوف بغتة فى معطفه القصير وحذائه العالى الى اندريه يفيميتش وقال وكأن شيئا لم يحدث بالامس :

– لقد جئتك فى موضوع يا زميلى . جئت ادعوك ، الا تريد ان تشترك معى فى كونسولتو ؟ هه ؟

وظن اندريه يفيميتش ان خوبوتوف يريد ان يسرى عنه بالتريض ، او يعطيه بالفعل فرصة للكسب ، فارتدى ثيابه وخرج معه الى الشارع . كان سعيدا بفرصة تصحيح خطأ الامس والتصالح ، وكان فى قرارة نفسه ممتنا لخوبوتوف الذى لم ينبس حتى ببنت شفة عما حدث بالامس ، رحمة به فيما يبدو . وكان من الصعب ان تتوقع من شخص غير مهذب كهذا مثل هذه اللباقة .

وسأل اندريه يفيميتش :

– واين مريضك ؟

– عندى فى المستشفى . لقد اردت منذ فترة طويلة ان اعرضه عليك . . . حاله طريفة جدا .

ودلفا الى فناء المستشفى ، ودارا حول المبنى الرئيسى متجهين الى الجناح الذى ينزل به المرضى العقليون . ولسبب ما جرى ذلك فى صمت . وعندما دخلا الجناح قفز نيكيتا كالعادة وشد قامته .

وقال خوبوتوف بصوت خافت وهو يدخل مع اندريه يفيميتش الى العنبر :

– لقد اصيب احدهم هنا بمضاعفات فى الرئتين . انتظرنى هنا ، سآتى حالا . سأذهب لاحضار السماعة .

وخرج .

١٧

حل الغسق . كان ايفان دميتريتش ممددا على سريره وقد دس وجهه فى الوسادة . وجلس المشلول دون حراك وهو يبكى بصوت خافت ويحرك شفتيه . اما الفلاح السمين والفراز السابق فكانا نائمين .

جلس اندريه يفيميتش على سرير ايفان دميتريتش وراح

ينتظر . ولكن بعد ان مضى حوالى نصف ساعة ، بدلا من خوبوتوف دخل نيكيتا ممسكا تحت ابطه روبا وملابس داخلية ما وحذاء .

وقال بصوت خافت :

– تفضل البس يا صاحب السعادة . هذا هو فراشك ، تفضل هنا – قال مشيرا الى سرير فارغ ، يبدو انهم قد وضعـــوه مؤخرا – لا بأس ، ان شاء الله ستشفى .

وفهم اندريه يفيميتش كل شيء . ودون ان يتفوه بكلمـــة انتقل الى السرير الذى اشار اليه نيكيتا وجلس . وعندما رأى ان نيكيتا ما زال واقفا ينتظر ، نزع ثيابه حتى تعرى تماما واحس بالخجل . ثم ارتدى ثياب المستشفى . كان السروال قصيرا جدا ، والقميص طويلا ، وفاحت من الروب رائحة سمك مدخن .

وردد نيكيتا :

– ستشفى ان شاء الله .

وجمع تحت ابطه ثياب اندريه يفيميتش وخرج واغلق الباب خلفه .

«سيان . . . – فكر اندريه يفيميتش وهو يشد الروب على جسده بحياء ويحس انه يشبه السجناء بملابسه الجديدة – سيان ، بدلة السهرة ام البدلة الرسمية ، ام هذا الروب . . .»

ولكن الساعة ؟ والمفكرة التى فى جيب السترة ؟ والسجائر ؟ الى اين اخذ نيكيتا الثياب ؟ فى الغالب لن يقدر له حتى الممات ان يرتدى السروال والصديرى والحذاء . وكل هذا يبدو غريبا وغير مفهوم للوهلة الاولى . وحتى الآن كان اندريه يفيميتش مقتنعـــا بأنه ليس هناك اى فرق بين بيت المواطنة بيلوفا وعنبر رقم ٦ ، وان كل شيء فى هذا العالم هراء وباطل الاباطيل ، ومع ذلك ارتعشت يداه ، وبردت قدماه ، واستولى عليه الرعب من فكرة ان ايفان دميتريتش سوف يستيقظ ويراه مرتديا الروب . فنهض، وتمشى قليلا ، ثم جلس .

ها هو قد جلس نصف ساعة ، ساعـــة ، وتملكه الملل الى درجة الكآبة . أمن المعقول ان يعيش المرء هنا يوما ، اسبوعا ، بل واعواما ، مثل هؤلاء الاشخاص ؟ ها هو قد جلس ، وتمشى ، ثم جلس من جديد . من الممكن ان يذهب الى النافذة ويتطلـــع

منها ، ثم يتمشى من ركن لركن . وماذا بعد ذلك ؟ هل يجلس طوال الوقت كالابله ويفكر ؟ كلا ، هذا شبه مستحيل .

ورقد اندريه يفيميتش ، ولكنه نهض لتوه ، ومسح بكمه العرق البارد من جبينه واحس ان وجهه كله قد تشبع برائحة السمك المدخن . وعاد فتمشى ثانية .

وقال وهو يشيح بيديه فى استغراب :

- هذا سوء فهم ما . . . ينبغى ان استوضح ، ثمة سوء فهم هنا . . .

وفى تلك اللحظة استيقظ ايفان دميتريتش . جلس واعتمد بخديه على قبضتيه . وبصق . ثم تطلع بكسل الى الدكتور ، ويبدو انه لم يفهم شيئا للوهلة الاولى ، لكن وجهه الناعس سرعان ما اصبح غاضبا وساخرا .

وقال بصوت ابح من اثر النوم وقد زر احدى عينيه :

- آه ، انت ايضا وضعوك هنا يا عزيزى ! سعيد جدا . كنت تشرب دم الناس ، والآن سيشربون دمك . رائع !

- هذا سوء فهم ما . . . - قال اندريه يفيميتش وقد اخافته كلمات ايفان دميتريتش ، وهز كتفيه واضاف - سوء فهم ما . . .

وبصق ايفان دميتريتش ورقد .

ودمدم بسخط :

- حياة لعينة ! والمحنق والمرير فى الامر ان هذه الحياة لن تنتهى بمكافأة على الآلام او بمشهد ختامى كما فى الاوبرا ، بل بالموت . يأتى خدم المستشفى ويسحبون الميت من يديه وقدميه الى القبو . بررر ! ولكن لا بأس . . . فى العالم الآخر سنحيى عيدنا . . . سوف آتى من العالم الآخر الى هنا ظلا لاخيف هؤلاء الاوغاد . ساشيبهم .

وعاد مويسيكا ، ورأى الدكتور فمد له يده قائلا :

- اعطنى كوبيكا !

١٨

ذهب اندريه يفيميتش الى النافذة ونظر الى الحقل . كان الظلام قد هبط ، وفى الجانب الايمن من الافق صعد قمر بارد

احمر . وعلى مقربة من سور المستشفى ، على بعد مائة ذراع لا اكثر قام منزل ابيض عال ، محاط بجدار حجرى . كان ذلك مبنى السجن .

وفكر اندريه يفيميتش : «هذا هو الواقع !» ، واحس بالرعب. كان القمر مرعبا ، والسجن ومسامير السور ، واللهب البعيد فى مصنع معالجة العظم . وسمع اندريه يفيميتش من ورائه زفرة ، فالتفت فرأى رجلا بنجوم لامعة واوسمة على صدره ، كان يبتسم له ويغمز بعينه فى خبث . وبدا له هذا ايضا مرعبا .

وراح اندريه يفيميتش يؤكد لنفسه انه ليس هناك اى شىء خاص فى القمر والسجن ، وانه حتى الاشخاص الاصحاء نفسيا يحملون الاوسمة ، وان كل ذلك بمرور الزمن سيزول ويتحول الى طين ، ولكن الياس تملكه فجأة ، فأمسك بالقضبان بكلتا يديه وهزها بكل قوته . ولكن القضبان القوية لم تستجب له .

ولكى يخفف من وطأة الخوف اتجه الى سرير ايفان دميتريتش. ودمدم وهو يرتعش ويجفف عرقه البارد :

– لقد انهرت يا عزيزى . انهرت .

فاجاب ايفان دميتريتش بسخرية :

– جرب ان تتفلسف اذن .

– يا الهى ، يا الهى . . . نعم ، نعم . لقد تفضلت ذات مرة وقلت انه ليس فى روسيا فلسفة ، ولكن الجميع يتفلسفون ، حتى الصغار ، ولكن تفلسف الصغار لا يعود بضرر على احد – قال اندريه يفيميتش بنبرة خاصة وكانه اراد ان يبكى او يستدر الشفقة – ما الداعى يا عزيزى لهذه السخرية الحاقدة ؟ وكيف لا يتفلسف هؤلاء الصغار اذا كانوا لا يشعرون بالارتياح ؟ الانسان النبيه المتعلم ، الابى ، الحر ، الشبيه بالاله لا يجد مخرجا سوى ان يصبح طبيبا فى مدينة صغيرة قذرة غبية ، ويقضى عمره كله فى وضع كؤوس الهواء ودود العلق والكمادات ! يا للاحتيال وضيق الافق والابتذال ! اوه يا الهى !

– انت تثرثر بحماقات . اذا كنت تنفر من الطب فاعمل وزيرا .

– لا يمكن ، لا يمكن ، مستحيل . نحن ضعفاء يا عزيزى . . .

كنت لامباليا ، اناقش بهمة ومنطق ، وما ان مستنى الحياة بخشونة حتى انهرت . . . خارت قواى . . . ضعفاء نحن ، سيئون نحن . . .وانت ايضا يا عزيزى . انت ذكى ، نبيل ، رضعت مع لبن الام الانفعالات النبيلة ، ولكن ما ان دخلت معترك الحياة حتى تعبت ومرضت . . .ضعفاء ، ضعفاء !

كان ثمة شيء آخر ملح ، غير الخوف والشعور بالحنق ، يرهق اندريه يفيميتش طوال الوقت منذ حلول المساء . واخيرا ادرك ان ذلك بسبب رغبته فى تناول البيرة والتدخين .

وقال :

– ساخرج من هنا يا عزيزى ، سأطلب منهم ان يشعلوا النور هنا . . انا لا استطيع هكذا . . لا احتمل . . .

ومضى اندريه يفيميتش الى الباب وفتحه ، ولكن نيكيتا هب واقفا على الفور وسد عليه الطريق ، وقال :

– الى اين ؟ ممنوع ، ممنوع ! حان وقت النوم .

فقال اندريه يفيميتش بوجل :

– ساخرج دقيقة واحدة فقط ، سأتمشى فى الفناء .

– ممنوع ، ممنوع . الاوامر لا تسمح . انت نفسك تعرف .

وصفق نيكيتا الباب وارتكز عليه بظهره .

وسأل اندريه يفيميتش وهو يهز كتفيه :

– ولكن هل سيحدث لاحد شيء اذا خرجت من هنا ؟ انا لا افهم ! – وقال بصوت متهدج – يا نيكيتا ينبغى ان اخرج ، انا بحاجة الى ذلك !

فقال نيكيتا آمرا :

– لا تسبب الفوضى . . . عيب .

وفجاة صاح ايفان دميتريتش وهب واقفا :

– الشيطان يعلم ما هذا ! باى حق يمنعه من الخروج ؟ كيف يجرؤون على ابقائنا هنا ؟ القانون ينص بوضوح فيما يبدو على عدم جواز حبس اى شخص بدون محاكمة ! هذا طغيان ! تعسف !

فقال اندريه يفيميتش وقد شجعه صياح ايفان دميتريتش :

– طبعا تعسف ! انا بحاجة الى الخروج ، ينبغى ان اخرج . ليس من حقه ان يمنعنى ! دعنى قلت لك !

وصاح ايفان دميتريتش ودق الباب بقبضته :

- اتسمع ايها الحيوان البليد ؟ افتح والا كسرت الباب ! ايها السفاح !

وصاح اندريه يفيميتش وجسده كله يرتعش :

- افتح ! انا اطالبك !

فرد نيكيتا من خلف الباب :

- اكمل ، اكمل ، هيا تكلم !

- على الاقل استدع يفجينى فيودورفيتش . قل له انى ارجوه ان ياتى . . . لدقيقة واحدة .

- سياتى غدا بنفسه .

ومضى ايفان دميتريتش يقول فى اثناء ذلك :

- لن يطلقوا سراحنا ابدا . سيجعلوننا نتعفن هنا ! اوه يا الهى ، احقا لا يوجد جحيم فى العالم الآخر وسيغفر لهؤلاء الاوغاد ؟ اين العدالة اذن ؟ - وصاح بصوت ابح وتحامل على الباب - افتح ايها الوغد ، اننى اختنق . سأحطم رأسى ، يا قتلة !

وفتح نيكيتا الباب بسرعة ، ودفع اندريه يفيميتش بيديه وركبته بخشونة ، ثم طوح بيده الى الوراء ولكمه بقبضته فى وجهه. وخيل لاندريه يفيميتش ان موجة مالحة ضخمة قد غطته حتى رأسه وسحبته الى السرير . وبالفعل شعر فى فمه بطعم مالح . . يبدو ان الدم تدفق من اسنانه . ولوح بيديه وكأنما يريد ان يطفو ، وتشبث بسرير ما ، وفى تلك اللحظة احس ان نيكيتا ضربه مرتين فى ظهره .

وصرخ ايفان دميتريتش بصوت عال . لا بد انه هو ايضا كان يضرب .

ثم هدأ كل شيء . وتسرب ضوء القمر الضعيف عبر القضبان ، وارتمى على الارض ظل يشبه الشبكة . وساد الرعب . وتمدد اندريه يفيميتش وقد حبس انفاسه . كان يتوقع فى رعب ضربة اخرى . واحس كانما غرز احدهم فيه منجلا واداره بضع مرات فى صدره واحشائه . وعض الوسادة من الالم وضغط على اسنانه ، وفجاة ومضت فى ذهنه بوضوح وسط الفوضى فكرة رهيبة لا تحتمل ، وهى ان مثل هذا الالم كان ينبغى ان يتحمله اعواما ،

ويوما اثر يوم ، هؤلاء الاشخاص الذين يلوحون الآن فى ضوء القمر ظلالا سوداء . وكيف امكن ان يحدث انه طوال اكثر من عشرين سنة لم يعرف ولم يرد ان يعرف هذا ؟ لم يكن يعرف ولا يتصور ما هو الالم ، واذن فهو غير مذنب ، ولكن ضميره ، العنيد والفظ تماما مثل نيكيتا ، جعله يتثلج من قمة راسه الى اخمص قدميه . وقفز ، واراد ان يصرخ بكل قواه ويهرب بسرعة لكى يقتل نيكيتا، ثم خوبوتوف والمشرف والحكيم ، ثم يقتل نفسه ، ولكن لم يخرج من صدره اى صوت ولم تستجب له ساقاه . وشـــد القميص والروب عند صدره وهو يختنق ومزقهما ، وارتمى على السرير فاقد الوعى .

١٩

فى صباح اليوم التالى احس بصداع ، وطنين فى اذنيه ، وتعب فى جسده كله . ولم يخجل من تذكر ضعفـــه بالامس . لقد كان بالامس جبانا ، وخاف حتى من القمر ، وعبر بصراحة عن مشاعر وافكار لم يكن يظن قبلا انها تراوده . مثلا فكرة عدم الرضا لدى الصغار المتفلسفين . اما الآن فلم يعد يهمه شىء .

لم ياكل ، ولم يشرب ، وتمدد بلا حراك ولزم الصمت .

وفكر عندما كانوا يوجهون اليه اسئلـــة : «الامر سيـــان عندى . . . لن ارد . . الامر سيان» .

وبعد الغداء جاء ميخائيل افيريانيتش واحضر معه ربع رطل من الشاى ورطلا من الحلوى . وجاءت داريوشكا ايضا ووقفت ساعة كاملة بجوار السرير وعلى وجهها تعبير حزن بليد . وزاره ايضا الدكتور خوبوتوف ، وجاء معه بقارورة بوتاسيوم بالبروم وامر نيكيتا ان يبخر العنبر .

وقبيل المساء توفى اندريه يفيميتش اثر نوبـــة نزيف . فى البداية احس بقشعريرة مذهلة وغثيان . وشـــده شىء ما مقزز ، كما خيل اليه ، من معدته الى راسه وملأ اذنيـــه وعينيه وهو يتغلغل فى كل جسده ، حتى فى اصابعه . وغامت عيناه . وادرك اندريه يفيميتش انها النهاية فتذكر ان ايفان دميتريتش وميخائيل افيريانيتش وملايين الناس يؤمنون بالخلود . وربما هو موجود ؟

ولكنه لم يكن يريد الخلود ، فلم يفكر فيه سوى لحظة . وركض مارا به قطيع من الغزلان الفائقة الجمال والرشاقة التى قرأ عنها بالامس . ثم مدت امرأة يدها له برسالة مسجلـــة . . . وقال ميخائيل افيريانيتش شيئا ما . ثم اختفى كل شىء وغاب اندريه يفيميتش الى الابد .

وجاء خدم المستشفى فسحبوه من يديه ورجليه الى المصلى وهناك تمدد على طاولة وعيناه مفتوحتان واضاءه القمر ليلا . وفى الصباح جاء سرجى سرجيتش ، وصلى بورع على الصليب ، واغلق عينى رئيسه السابق .

ودفن اندريه يفيميتش بعد يوم . ولم يحضر الجنازة سوى ميخائيل افيريانيتش وداريوشكا .

١٨٩٢